مع الإسلام

٣

وسائل تقدم المسلمين

تأليف
أحمد الشرباصي

تصدرها
مؤسسة المطبوعات الحديثة



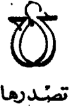
مع الإسلام

٣

وسائل تقدم المسلمين

تأليف

أحمد الشرباصي



تصدرها

مؤسسة المطبوعات الحديثة

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وأستفتح بالذى هو خير : ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

يقول الحق عز من قائل : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى ، لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

فى ظلال هذه الآية المحكمة التى تؤكد وعدَ الله أصدقِ القائلين لعباده المسلمين — إذا أطاعوا ربهم ورسولهم ، وألفوا الطيبات من الأعمال — بأن يجعلهم خلفاءه فى الأرض ، يسوسونها بالحق والعدل والرحمة ؛ كما حقق ذلك لعباده الصالحين المصلحين من قبل ، ويثبت لهم قواعد دعوتهم ، ويوطد دعائم عقيدتهم ، ويزيل الخوف والبأس عنهم ، وينشر الأمن والسلام فيهم ، لأنهم لا يخافون غيره ، ولا يذلون لسواه ، ولا يعبدون إلا إياه . .

وفى ظلال الحديث النبوى الذى ساقه الإمام ابن جرير الطبرى

فى تفسيره سبباً لنزول هذه الآية ، وجاء فيه : « مكث النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سراً وعلانية . قال: ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة ، قال : فمكث بها هو وأصحابه خائفين ، يصبحون فى السلاح ، ويمسون فيه ، فقال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟! .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تغْبرُون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً فيه ، ليس فيه حديدة » ! .

فى ظلال هذه الآية الكريمة ، وهذا الحديث الشريف ، أشرع القلم لأخط هذه الصفحات عن « وسائل تقدم المسلمين » ، راجياً أن تلقى هذه الصيحةُ آذاناً واعية ؛ وأفئدة صاغية ، وهمماً ملبية ، وعزائم ماضية ، : « إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا توْفِيقى إلاَّ باللهِ ، عَلَيْهِ توَكَّلْتُ ، وَإلَيْهِ أُنِيبُ » ! . . .

أحمد الشرباصى

الفصل الأول

وسائل تقدم المسلمين

ما المراد بهذا العنوان ؟ . . .

إن تحديد المراد بالعنوان تحديد للمراد من الموضوع ، وتحديد المراد من الموضوع يعين على حسن عرضه وتتبعه .

فما المراد بالوسائل ؟ وما المراد بالتقدم ؟ ومَن المسلمون ؟. ويتبع ذلك السؤال الأخير أن نسأل : وما الإسلام ؟ . . .

تقول العربية إن « الوسيلة » هى المنزلة عند السلطان ، والدرجة ، والقربة ؛ وما يتوصل به الإنسان إلى شىء ، أو هى التوصل إلى الشىء برغبة ، ووسّل الشخصُ إلى الله تعالى وسيلةً وتوسيلاً ، إذا عمل عملاً يتقرب به إليه كتوسل ، والواسل هو الراغب إلى الله تعالى .

وقد وردت الكلمة فى التنزيل المجيد مرتين ، الأولى فى سورة المائدة : « يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إليه الوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فى سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحون » . والأخرى فى سورة الإسراء : « أولئِكَ الذين يَدْعُونَ ، يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهم الوَسِيلَةَ أيُّهُمْ أقْرَبُ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، وَيَخافُون عَذَابَهُ ، إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُورًا » .

وابتغاء الوسيلة إلى الله هو طلب ما يُرجى أن يتوصل به إلى القرب منه وإلى مرضاته واستحقاق ثوابه ؛ وحقيقة الوسيلة — كما يذكر الراغب الأصفهانى — هى مراعاة سبيل الله بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة ، ويكون هذا برغبة وإرادة ، ولذلك قالوا إن الوسيلة أخص من الوصيلة ، لأن الوسيلة توصلٌ إلى الشيء برغبة ، ولكن الوصيلة لا تتضمن معنى الرغبة .

و « التقدم » من مادة « قدم » ، وهى مادة تدل على السبق — كما يذكر ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة — يقال مضى فلان قُدُماً : أى لم يعرج ولم ينثن ؛ ولفلان قَدَمُ صِدْق : أى له شيء متقدم من أثر حسن ، وأقدم على الشيء : أقبل ، ومقدّمة الجيش : أوله ، وقدم الإنسان سُميت بذلك لأنها آلة للتقدم والسبق .

ونفهم من هذا أن المراد بالتقدم هنا هو الإقبال نحو ما هو خير وأحسن بخطوات علمية وعملية وخُلقية ...

« والمسلمون » هم — عُرفا — أهل العالم الإسلامى الذى يتكون على وجه التقريب من الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) ، وبقية بلاد الشام : لبنان وفلسطين وشرق الأردن ، والسودان ، وشمال أفريقيا : المملكة الليبية المتحدة ، وتونس ، والجزائر ، ومملكة المغرب ، وشبه الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية ، والعراق ، واليمن ، وإمارات الخليج العربى أو خليج البصرة ، وإمارات الساحل الجنوبى للجزيرة ، وتركيا ، وإيران ، وباكستان ، وأفغانستان ، والتركستان ، وأندونيسيا ، والملايو ، وبعض المقاطعات الأخرى ، وتوجد « أقليات » إسلامية فى مختلف بلاد العالم .

هؤلاء هم المسلمون بالمعنى العرفى ، أو بالمعنى الجغرافى ، ولكن كلمة « المسلمين » جمعٌ لكلمة « مسلم » ، وكلمة « مسلم » تدل على وصف إذا تحقق فى صاحبه استحق إطلاقه عليه ، ولذلك نلحظ فرقاً بين المعنى العرفى والمعنى الحقيقى للكلمة . فالمسلم بالمعنى الأول كل من عاش فى هذه البلاد ، وانتسب إلى هذا الدين بالمتابعة للأسرة ، أو بذكر ذلك فى شهادة الميلاد ، وإن لم يتقيد بقيود الإسلام فى حياته وأعماله ، ولم يخضع لنظمه ومبادئه : وأما المسلم بالمعنى الحقيقى للكلمة فهو الشخص الذى حقق فى نفسه معنى الاستسلام لله ، والانقياد لأمره ، والخضوع لشريعته ، فيكيِّف علاقته بربه وبالناس وبالكون وبالحياة كما أمر الله ، وعلى هذا المعنى تكررت كلمة « المسلمين » كثيراً فى القرآن الكريم ، فقال الله تعالى : « يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِهِ ، ولاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأنْتم مُسْلِمُونَ » ، وقال « وَمَنْ أحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وقال إننى مِنَ المُسْلِمينَ » ، وقال : « وَمَنْ أحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهو مُحْسِنٌ » ، وقال على لسان إبراهيم وإسماعيل : « رَبَّنَا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لكَ ومِنْ ذُرِّيتِنا أمةً مسلمةً لك » . . .

ولقد تحقق معنى كلمة « المسلمين » فى السلف الصالح من أهل صدر الإسلام ، فآمنوا وأخلصوا ، وعملوا بمقتضى الإسلام فعزوا وفازوا ؛ ولكن الطريق اعوجَّ بعد ذلك ، وانحرف معنى الكلمة فى أذهان الناس ، أو انحرف استعمال الناس لها ، فصارت الكلمة تُطلق على من ينطق بكلمة الإسلام أو شهادته ، وإن لم يتقيد بلازمها ، أو على من كتبوا فى شهادة ميلاده أنه مسلم . . .

والحديث عن المسلمين يدعونا إلى الحديث عن الإسلام . . .
فما الإسلام ؟ . . .

الإسلام هو دين الله الذى أوحاه إلى نبيه محمد ، وأمره بتبليغه إلى الناس ؛ ويصوِّر هذا الإسلامَ أمران :

أولهما كتاب الله القرآن المجيد — وهو الأصل والأساس — وثانيهما ما صح عن رسول الله من حديث أو سنة ، وهذه السنة هى تفسير للقرآن ، وتحديد لأحكامه ونظامه .

وللإسلام قاعدتان أو شعبتان : الشعبة الأولى هى العقيدة ، أى الإيمان بما يجب الإيمان به فى هذا الدين من معتقدات ؛ والشعبة الأخرى هى الشريعة ، أى النظم التى وضعها الخالق سبحانه وتعالى لتنظيم علاقة الإنسان بربه وبالمسلمين وبالناس جميعاً وبالحياة التى يحياها .

وهاتان القاعدتان متلازمتان متكاملتان ، فلا يكفى اعتقاد أو إيمان دون تشريع وعمل ، كما أنه لا يستقيم عمل دون اعتقاد وإيمان . والإسلام فى حقيقته الكاملة اعتقاد بالعقل ، ووجدان بالقلب ، وإخلاص فى النية ، وعمل بالحواس . ولو كانت هذه الحقيقة موجودة فى نفوس المنتسبين إلى الإسلام لكانوا أكبر قوة مادية وروحية فى العالم ، ولاستطاعوا أن يوجهوا زمام الدنيا الوجهة الراشدة القاصدة التى يطالبهم ربهم بالاتجاه إليها وتوجيه الغير نحوها ، ولأصبحوا فى رفعة وعزة وسيادة يغبطهم عليها الأولياء ، ويحسدهم من أجلها الأعداء . . .

وذلك لأن المنتسبين إلى الإسلام عدد كبير هائل ، يزيد على أربعمائة مليون مسلم ، وبلادهم تحتل رقعة واسعة هامة من الكرة الأرضية ،

وهذه الرقعة تُعتبر كبد العالم وقلب الدنيا، وهى وسط المعمور من اليابس والماء، وفيها من الكنوز والمناجم والخيرات والطاقات ووسائل العيش والقوة والإنتاج الشيء الكثير الهائل؛ وهذه المجموعة من الأقطار الإسلامية الغنية بخيراتها ومواردها ومواهب بنيها المطمورة، تستطيع فوق هذا أن تحصن نفسها بحصون طبيعية حسية، فوق حصونها البشرية والمعنوية، فهى تُحد تقريباً من الغرب بصحراء أفريقيا الغربية والمحيط الأطلنطى، ومن الشمال بالبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود وبحر قزوين وجبال القوقاز، ومن الشرق بجبال التبت والتركستان، ومن الجنوب بالمحيط الهادى «بحر العرب»!...

وهذه المجموعة الهائلة كمًّا وكيفا، وعدداً وعُدة، لها طابع عام يطبعها ويجمعها؛ برغم ما فيها من دول وأجناس وعناصر ولغات محلية: ذلك الطابع هو طابع العقيدة الإسلامية التى تجعلهم أسرة كبيرة واحدة، لأنهم عند الله وبحكم الإسلام الجامع لهم إخوةٌ كما يقول القرآن الكريم: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»، «فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» وكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم» ويقول: «وكونوا عباد الله إخوانا».

وهذا الطابع لا يقتصر على المجال النظرى، بل يتعداه إلى مجال الواقع والتطبيق، وإن لم يكن ذلك على الوجه المنشود، فإن المسلم قد يأتى إلى القاهرة مثلا من أقصى بلاد أفغانستان، فيشعر أهل القاهرة بأن هناك رابطة إلهية وأخوة مقدسة تربطهم بهذا المسلم القادم من أقصى بلاد الشرق، لأنهم يشتركون معه فى عقيدة واحدة هى عقيدة: لا إله إلا الله،

محمد رسول الله ؛ ويشتركون معه فى الاستقاء من منبع واحد هو القرآن والسنة ، ويشتركون معه فى عبادات موحدة هى الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ويتجهون معه إلى قبلة واحدة هى الكعبة ، وينتظرون معه يومَ جزاء واحد ، هو يوم القيامة . . .

وهذا الدين الذى تعتنقه هذه المجموعة الضخمة ـ أو تنتسب إليه ـ فيه من أسباب الرفق والقوة والمدنية والسعادة والاعتدال ما يجعله صالحاً كل الصلاح لكى يرتفع بأهليه الموفَّقين فى فهمه ، الحكماء فى تطبيقه ، المخلصين لمبادئه ، إلى حيث يطمحون من قمم العزة والسعادة ؛ فهو — فى إيجاز — دين مع دنيا ، وعبادة مع عمل ، وجسم مع روح ، وعقل مع قلب ، وعلم مع خُلق ، وتهذيب مع حكم ، وقيادة مع سيادة . . .

وهو قد جاء ليطهر النفس ، ويسمو بالروح ، ويهذِّب الغريزة ، ويقوِّم الفرد ، وينظم الأسرة ، ويسوس الأمة ، ويخفف آلام العالم ... وهو يبيح للإنسان أن يجمع ولا يكنز ، وأن يأكل ولا يتخم ، وأن ينفق ولا يسرف ، وأن يتجمل ولا يتخنث ، وأن يلهو ولا يأثم ، وأن يكسب ويزكى ، وأن يأخذ ويعطى ، وأن يسمو إلى العلا ثم يعدل . . .

إذن فالعدد كبير هائل ، والمكان جليل قيم ، والخيرات كثيرة وفيرة ، والرغبة فى التقدم موجودة ، فلا يأبى الكرامة إلا اللئيم .

والوسائل متعددة منها المادى والمعنوى ، ومجالات التقدم متعددة ، منها العلمى والروحى والاقتصادى والصناعى والأدبى والأخلاقى ، والحاجة إلى هذا التقدم بأنواعه قائمة ملموسة ، فكيف السبيل ؟ ! . . .

الفصل الثانى

نريد خطوة إيجابية

مضى زمن طويل والكتاب يكتبون عن تأخر المسلمين وضعفهم ، وحاجتهم إلى النهوض والتقدم ، ولم يزعم زاعم فى شرق ولا فى غرب أن المسلمين فى عهدهم الأخير هم كالمسلمين السابقين فى عصرهم المزهر الناضر الذى سادوا فيه وقادوا ، وأوجدوا خلاله فى الدنيا مدنية وحضارة . فحاجة المسلمين — إذن — إلى الإصلاح والتقدم أمر متفق عليه عند الجميع . . . وقد يكون من الخير أن نتعرف فى تلخيص وتركيز إلى بعض ما كتبه الكاتبون عن تأخر المسلمين وضعفهم . .

فى سنة ١٣٤٨ ﻫ اقترح مقترح على الأمير شكيب أرسلان أن يكتب بحثاً فى أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر وأسباب قوة الإفرنج ، ليجدد التأثير فى نفوس المسلمين ، فاستجاب الأمير للرغبة ، وكتب كتابه : « لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم » ؟ . وفى هذا الكتاب يذكر الأمير أن انحطاط المسلمين عام ، وإن كان متفاوتاً بحسب البقاع والأمكنة ، فحالتهم لاترضى ، لا من ناحية الدين ولا من ناحية الدنيا ، وأن أسلافهم قد نهضوا بالدين الذى حقق لهم التوحيد والوحدة والمدنية ، ففتحوا وسادوا ، حتى كان الواحد منهم يجاهد وهو يقول : إنى لأشم رائحة الجنة . . .

ثم ذل أخلافهم لقعودهم عن جميع العزائم التى كان يقوم بها آباؤهم ، ففقدوا الحماسة وأحبوا الدنيا ، وكرهوا الموت ، وعطلوا الزكاة ، واقتصروا على الدعاء ، وتقاعسوا عن التضحية والتبرع للخـــير ، واستسلموا للأجانب ، وخافوا بطشهم ، دون الخوف من الله ذى البطش الشديد ، وصاروا بطانة للأجنبي فنهم الخونة ومنهم الجواسيس ، وأهملوا التعاون على نشر الإسلام والتبشير به ، ثم قطعوا أسبابهم عن العـــلم ووصلوها بالجهل التام ، ولم يتعلموا إلا قشوراً هى أخطر من الجهل ، لأن الابتلاء بجاهل خير من الابتلاء بشبه عالم . . .

ثم أضيف إلى ماسبق فساد الأخلاق وترك الفضـائل التى أمر بهـا القرآن ، وفساد أخلاق الأمراء ، وتزلف العلماء إلى الـكبراء ، وتحريفهم للدين بإصدار الفتاوى الباطلة ، واتخاذ الدين مصيدة للدنيا مع الجبن والهلع ، ثم الجمود الأعمى على القديم البالى ، بينما أسرف الملحدون فى الجحود . . .

ثم زادت المصيبة بالـكذابين المحتالين من الدراويش والمتصوفين والـكسالى الذين أساءوا فهم عقيدة القضاء والقدر ، فمالوا إلى الاتكال السلبي الـكاذب ، وتركوا التوكل الصحيح الذى يكون بعد أخذ الأسباب واستنفاد الوسائل فى الأعمال : وكان من وراء هذا أن فقد المسـلمون الثقة بأنفسهم ، فاعتقدوا أنهم لايصلحون إلا تابعين للفرنجة ، وأن الدين يؤخرهم عن ركب المدنية ، مع أن الأمم الناهضة تتمسك بأديانها ، وحاول بعضهم أن يجعل نهضة بلاده « لادينية » . . .

وأهمل المسلمون فى إعداد الجيوش وإعداد السلاح والقوة ، فمكّنوا

للأعداء وفتحوا بلادهم للاحتلال والاستغلال . . .

وكان من أسباب ضعف المسلمين وتأخرهم أيضاً أن طائفة استغلت الانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الطغيان أو فى الكسل والاستغلال ، مع أن الحديث يقول . « ألا إن بعض آل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى ، وليس الأمر كذلك ، إنما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا ؛ ألا إنى لاأجيز لأهل بيتى أن يفسدوا ماأصلحت » .

ولقد كتب أحد السلاطين إلى أمير من أمراء مكة بدا منه الظلم يقول : « اعلم أن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن . وأن السيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أسوأ ، وقد بلغنا أنك بدلت حرم الأمن بالخيفة ، وأتيت مايحمر له الوجه وتسودُّ الصحيفة ، فإن وقفت عند حدك ، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك » !!! ...

وهكذا انصرفت همة «أمير البيان» فى أغلب حديثه إلى تعداد العيوب والمساوىء ، مع الاستشهاد بالوقائع التى رآها أو سمع بها ، مما يبين الأسباب التى جعلت المسلمين فى ضعف وتأخر . . .

وقد اشتهر كتاب الأمير وسار وطُبع ثلاث مرات . . .

كما أن الأمير قد علق على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » الذى ألفه « لوثروب ستودارد » الأمريكى ، وترجمه الأستاذ عجاج نويهض ، وقد تحدث المؤلف فى هذا الكتاب عن يقظة العالم الإسلامى ، والجامعة الإسلامية ، واستعباد الغرب للشرق ، وحركات الإصلاح الدينى . ولكن الصبغة التاريخية الوصفية فى الكتاب تغلب غيرها ، كما أن الأمير قد أكثر من الاستطراد فى تعليقاته ومن إضافة البحوث المختلفة ، حتى

تضخم حجم الكتاب كثيراً ، إذ كان جزءاً فصار أربعة أجزاء ، وقل فيه الترتيب والتنسيق ، ونحن نقول هذا مع الاعتراف بقيمة الكتاب وفائدته ، وقد انتفع به كثيرون ، وذاعت شهرته فى البلاد الإسلامية .

* * *

وقبل الأمير شكيب كتب الثائر الإسلامى العربى السيد عبد الرحمن الكواكبى فى أحوال المسلمين وتأخرهم وعيوبهم كتاباً سماه « أم القرى » فتخيل أن مؤتمراً إسلامياً قد عقد بمكة سنة ١٣١٦ هـ ، وأن هذا المؤتمر قد اشترك فيه ممثلون للعالم الإسلامى ، وتباحثوا فى أسباب تقهقر المسلمين والخلل النازل بهم ، ثم جمع « الكواكبى » هذه الأسباب ، وجعلها ثلاثة أنواع ، هى الأسباب الدينية ، والأسباب السياسية ، والأسباب الأخلاقية ، ومن هذه الأسباب أصول رمز لها بحرف « أ » ، ومنها فروع رمز لكل منها بحرف « ف » . ونوردها فيما يلى :

أولا : الأسباب الدينية :

١ — تأثير عقيدة الجبر فى أفكار الأمة (أ) .
٢ — تأثير المزهدات فى السعى والعمل وزينة الحياة (ف) .
٣ — تأثير فتن الجدل فى العقائد الدينية (أ) .
٤ — الاسترسال للتخالف والتفرق فى الدين (أ) .
٥ — الذهول عن سماحة الدين وسهولة التربية به (أ) .
٦ — تشديد الفقهاء المتأخرين فى الدين خلافا للسلف (أ) .
٧ — تشويش أفكار الأمة بكثرة تخالف الآراء فى فروع أحكام

الدين (ف) .

٨ — فقد إمكان مطابقة القول للعمل فى الدين بسبب التخليط والتشديد (ف) .

٩ — إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعا مضرة (أ) .

١٠ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهواً ولعباً (ف) .

١١ — إفساد الدين بتفنن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات (ف)

١٢ — إدخال المدلسين والمقابرية على العامة كثيراً من الأوهام (أ).

١٣ — خلع المنجمين والرمالين والسحرة والمشعوذين قلوب المسلمين بالمرهبات (ف) .

١٤ — إيهام الدجالين والمداجين أن فى الدين أمورا سرية ، وأن العلم حجاب (أ) .

١٥ — اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين (أ) .

١٦ — تطرق الشرك الصحيح أو الخفى إلى عقائد العامة (ف) .

١٧ — تهاون العلماء العاملين فى تأييد التوحيد (ف) .

١٨ — الاستسلام للتقليد وترك التبصر والاستهداء (ف) .

١٩ — التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف (ف) .

٢٠ — الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج (أ) .

٢١ — العناد على نبذ الحرية الدينية جهلا بمزيتها (ف) .

٢٢ ـ التزام ما لا يلزم لأجل الاستهداء من الكتاب والسنة (ف) .
٢٣ ـ تكليف المسلم نفسه ما لا يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمور به (ف) .

ثانياً : الأسباب السياسية :

٢٤ ـ السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية (أ) .
٢٥ ـ تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية (ف) .
٢٦ ـ حرمان الأمة من حرية القول والعمل ، وفقدانها الأمن والأمل (ف) .
٢٧ ـ فقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة (ف) .
٢٨ ـ ميل الأمراء طبعاً للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين (ف) .
٢٩ ـ حرمان العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم (أ) .
٣٠ ـ اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدمة الدين للجهلاء (أ) .
٣١ ـ قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء (أ) .
٣٢ ـ تكليف الأمراء القضاةَ والمفتين أموراً تهدم دينهم (ف) .
٣٣ ـ إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار ، وتقريبهم المتملقين والأشرار (أ) .
٣٤ ـ مراغمة الأمراء السراةَ والهداة والتنكيل بهم (ف) .
٣٥ ـ فقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق (ف) .
٣٦ ـ حماقة أكثر الأمراء وتمسكهم بالسياسات الخرقاء (ف) .

٣٧ — إصرار أكثر الأمراء على الاستبداد عناداً واستكباراً (ف) .

٣٨ — انغماس الأمراء فى الترف ودواعى الشهوات ، وبعدهم عن المفاخرة بغير الفخفخة والمال (ف) .

٣٩ — حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط (أ) .

ثالثاً : الأسباب الأخلاقية :

٤٠ — الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه (أ) .

٤١ — استيلاء اليأس من اللحاق بالفائزين فى الدين والدنيا (ف) .

٤٢ — الإخلاد إلى الخمول ترويحاً للنفس (ف) .

٤٣ — فقد التناصح وترك البغض فى الله (أ) .

٤٤ — انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية (أ) .

٤٥ — فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد (ف) .

٤٦ — فقد التربية الدينية والأخلاقية (أ) .

٤٧ — فقد قوة الجمعيات وثمرة دوام قيامها (أ) .

٤٨ — فقد القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون فى الزكاة (أ) .

٤٩ — ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال (ف) .

٥٠ — إهمال طلب الحقوق العامة جبناً وخوفاً من التخاذل (ف) .

٥١ — غلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً (ف) .

٥٢ — تفضيل الارتزاق بالجندية والخدم الأميرية على الصنائع (ف) .

٥٣ — توهم أن علم الدين قائم فى العمائم وفى كل ما سطر فى كتاب (ف) .

٥٤ — معاداة العلوم العالية ارتياحاً للجهالة والسفالة (أ) .

٥٥ — التباعد عن المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة (أ) .

٥٦ — الذهول عن تطرق الشرك وشآمته (أ) .

ثم أخذ الكواكبي يذكر عقب هـذا أسباب الخلل فى السياسة والإدارة المتعلقتين بالمملكة العثمانية — وهى لا توجد الآن فلا تعنينا هنا — وبعد أن ذكر واحداً وعشرين سبباً أضاف إلى الأسباب التى ذكرناها من قبل هذه الأسبابَ التسعة العامة، بعنوان: «أسباب شتى»:

١ — عدم تطابق الأخلاق بين الراعى والرعية.
٢ — الغرارة، أى الغفلة عن ترتيب شئون الحياة.
٣ — الغرارة عن لزوم توزيع الأعمال والأوقات.
٤ — الغرارة عن الإذعان للإتقان.
٥ — الغرارة عن موازنة القوة والاستعداد.
٦ — ترك الاعتناء بتربية النساء.
٧ — عدم الالتفات للكفاءة فى الزوجات.
٨ — الخور فى الطبيعة، أى سقوط الهمة.
٩ — الاعتزال فى الحياة والتواكل.

ونستطيع أن نلاحظ أن بحث الكواكبى فى «أم القرى» كان أوسع نطاقا وأعمق تتبعاً للأمراض وتجميعاً لأسباب التأخر، من بحث الأمير شكيب، مع أن مؤتمر الكواكبى المتخيل كان سنة ١٣١٦ أى قبل كتابة شكيب لبحثه بأكثر من ثلاثين عاماً، ومما نلاحظه أيضاً أن الأمير لم يشر فى كتابه إلى كتابة الكواكبى.

ثم نجد الكواكبى يعود إلى الحديث عن أسباب تأخر المسلمين، وعن البلايا التى لحقتهم بسبب هـذا التأخر.. يعود إليه فى كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، وقد ذُيلت مقدمةُ هـذا

الكتاب بتاريخ هو عام ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م أى بعد انعقاد المؤتمر المتخيل فى « أم القرى » بنحو أربع سنوات .

ولكن الكواكبى الثائر يركز عنايته فى هذا الكتاب فى تجسيم علة الاستبداد وتهويل مصيبة الاستعباد ، فهو يُبدىء فيها ويعيد ، فنراه تارة يصور لنا المستبد بصورة مثيرة مفزعة ، إذ يقول : « المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم دَرًّا وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقاً » ؛ وإذ يقول : « الاستبداد المشئوم لم يرض أن يقتل الإنسانُ الإنسانَ ذبحاً ليأ كل لحمه أكلا ، كما يفعل الهمج الأولون ، بل تفنن فى الظلم ، فالمستبدون يأسرون جماعتهم ، ويذبحونهم فصداً بمبضع الظلم ، ويمتصون دماء حياتهم بغصب أموالهم ، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة فى أعمالهم ، أو بغصب ثمرة أتعابهم ؛ وهكذا لا فرق بين الأولين والآخرين فى نهب الأعمار وإزهاق الأرواح ، إلا فى الشكل » .

ونراه تارة يصوِّر كيف يجنى الاستبداد على العلم ، حتى تظل الأمة كالقاصر الذى لا يعرف حقوقه ولا يثور لضياعها ، فيقول : « ما أشبه المستبد فى نسبته إلى رعيته بالوصى الخائن القوى ، يتصرف فى أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ، ما داموا ضعافاً قاصرين ، فكما أنه ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتامُ رشدَهم ، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم » .

ويقول : « ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل : الحكمة النظرية ، والفلسفة العقلية ، وحقوق الأمم ، وطبائع الاجتماع ، والسياسة المدنية ، والتاريخ المفصل ، والخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التى

تكبر النفوس ، وتوسع العقول ، وتعرّف الإنسان ماهى حقوقه ، وكم هو مغبون فيها » .

ونراه تارة يصوّر حرص الاستبداد على امتصاص المال وإفقار الأمة ، وارتكابه فى سبيل ذلك طائفةً من الجرائم والعظائم ، فيقول : « الاستبداد لو كان رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الإساءة ، وأخى الغدر ، وأختى المسكنة ، وعمى الضر ، وخالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنتى البطالة ، وعشيرتى الجهالة ، ووطنى الخراب ؛ أما دينى وشرفى وحياتى فالمال ! المال ! المال ! » . . .

ونراه تارة أخرى يصوّر إفساد الاستبداد للأخلاق فيقول : « الاستبداد يتصرف فى أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة ، فيضيعها أو يفسدها أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ، لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ؛ ويجعله حاقداً على قومه ، لأنهم عون لبلاء الاستبداد عليه ، وفاقداً حبَّ وطنه ، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ، ويود لو انتقل منه ، وضعيفَ الحب لعائلته ، لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها ، ومختلَّ الثقة فى صداقة أحبابه ، لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ ، وقد يُضطرون لإضرار صديقهم ، بل وقتله وهم باكون » .

وبعد أن يصول الكواكبى ويجول فى تصوير فظاعة الاستبداد وشناعة الاستعباد ، ويتفنن فى عرض ذلك بأساليب متعددة ، واستطرادات ثائرة ، وخطابيات ملتهبة تدل على ثورة عنيفة وإحساس عميق بنكبة قومه ببلية الاستبداد ، يذكر لنا رأيه الذى انتهى إليه فى تأخر المسلمين

وعلتهم ، بعد تعمق وتمحيص وتحليل ، فيقول فى عبارة ثائرة مبسوطة :

« ياقوم ـ وأعنى منكم المسلمين ... أيها المسلمون ، إننى نشأت وشبت وأنا أفكر فى شأننا الاجتماعى ، عسى أن أهتدى لتشخيص دائنا ، فكنت أتقصى السبب بعد السبب ، حتى إذا وقعت على ماأظنه عامًّا ، أقول لعلّ هذا هو جرثومة الداء ، فأتعمق فيه تمحيصاً وأحلله تحليلا ، فينكشف التحقيق عن أن ما قام فى الفكر هو سبب من جملة الأسباب ، أو هو سبب فرعى لا أصلى ، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب .

وطالما أمسيت وأصبحت أجهد الفكر فى الاستقصاء ، وكثيراً ما سعيت وسافرت لأستطلع آراء ذوى الآراء ، عسى أهتدى إلى مايشفى صدرى من آلام بحث أتعبنى به ربى ؛ وآخر ما استقرّت عليه سفينة أفكارى هو :

إن جرثومة دائنا هو خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة ، دين النظام والنشاط ، دين القرآن الصريح البيان ، إلى صبغة أننا جعلناه دين الخيال والخبال ، دين الخلل والتشويش ، دين البدع والتشديد ، دين الاجتهاد [١] .

وقد دب فينا هذا المرض منذ ألف عام ، فتمكن فينا وأثر فى كل شئوننا ، حتى بلغ فينا استحكام الخلل فى الفكر والعمل أننا لا نرى فى الخالق جل وعلا نظاماً فيما اتصف ، نظاما فيما قضى ، نظاماً فيما أمر ، ولا نطالب أنفسنا ـ فضلا عن آمرنا أو مأمورنا ـ بنظام وترتيب واطراد ومثابرة ...

---

(١) يظهر انه يقصد بالاجتهاد هنا التأويل والتخريج .

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مشوش ، وفكرنا مشوش ، وسياستنا مشوشة ، ومعيشتنا مشوشة ، فأين منا ـ والحالة هذه ـ الحياة الفكرية ، الحياة العملية ، الحياة العائلية ، الحياة الاجتماعية ، الحياة السياسية ... » .

* * *

ونلاحظ على الكواكبي أيضاً أنه يميل في غالب كتاباته إلى تصوير العيوب ووصف الضعف وذكر أسباب الخلل، وإن كان يذكر بعض وجوه الإصلاح من حين لحين ، كما فعل حينما ذكر الأعمال التي رجا أن تقوم بها « جمعية تعليم الموحدين » التي جعلها نتيجة لمؤتمر أم القرى ؛ ولكننا نلاحظ أن هذه الأعمال التي ذكرها تعالج وضعاً كان الكواكبي يشكو منه في عصره ، ولذلك ارتبطت هذه الأعمال ببعض الأوضاع القائمة حينذاك ، ولم تتسع دائرتها حتى يمكن وصفها بالشمول والإحاطة والتعرض لمنهاج التقدم والقوة اللازم للمسلمين بصفة عامة ...

* * *

وفي سنة ١٩٥٠م أصدر أخونا الأستاذ أبو الحسن على الحسنى الندوى كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » فكان صيحة جديدة من صيحات التذكير بما أصاب المسلمين من ضعف وتأخر ؛ وقد أبان فيه حالة العالم قبل مجيء الإسلام ، وقبل تكوّن الجماعة المسلمة المؤمنة الموقنة ، وصوّر كيف أنقذ الإسلام والمسلمون هـــذا العالم من الفوضى والظلم والتحلل والحيرة والإلحاد والمادية والهوى ، وكيف سعد العالم بهذا الإنقاذ ؛ ثم انتقل إلى تصوير ضعف المسلمين بعد ذلك ، لأنهم أعرضوا عن دينهم ونسوا تعاليمهم وتبعوا سواهم ، وفقدوا روح نبيهم محمـــد

صلى الله عليه وسلم التى كانت سارية فيهم تقودهم وتعصمهم ... وعُنى المؤلف عناية واضحة بذكر النكبات والخسائر التى أدركت المسلمين وأدركت العالم معهم بسبب تأخر المسلمين وانحطاطهم .

ومن هذا نرى أن المؤلف الفاضل اتجه أيضاً فى كثير من حديثه إلى ناحيتين : ناحية الماضى وما قدمه المسلمون فيه إلى العالم ، وناحية الخسائر التى لحقت العالم بسبب نكبة المسلمين وتأخرهم ، وإن كان المؤلف قد تحدث فى بعض المواطن عن الطريق إلى استرداد المجد السابق للمسلمين كحديثه عن أمل المسلمين فى زعامة العالم العربى ، لأنه المرجو فى حمل رسالة الإسلام من جديد ، أو حديثه عن الاستعداد الصناعى والحربى ، أو عن التنظيم العلمى .

* * *

وهذا كتاب آخر صغير الحجم ، ولكن له قيمته ، وإن لم يكن هدفه الأساسى التحدث عن أسباب تأخر المسلمين أو وسائل تقدمهم ؛ وهو كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » لمؤلفه : « ليوبولد فايس » وهو باحث نمساوى ، كان مسيحياً ، ثم درس الإسلام وأسلم ، وسمّى نفسه « محمد أسعد » منذ عهد غير بعيد ، وتحدث فى كتابه عن روح الإسلام ، ومنهجه فى الحياة ، وحسن جمعه بين مطالب الروح ومطالب البدن ، وعن الكراهية العميقة التى يضمرها الغرب للإسلام والمسلمين ، تلك الكراهية التى تجلت صورتها وصراحتها فى الحروب الصليبية ، وعن الخطر الكامن فى تقليد المسلمين للمدنية الغربية دون الإبقاء على الشخصية الإسلامية ، وعن مكانة السنة النبوية التى تعد تفسيراً وتطبيقاً للقرآن الكريم .

ومن هذا التركيز الوجيز لموضوعاته ندرك ـ كما سبق أن أشرت ـ أنه لا يهدف إلى موضوعنا الذى نتحدث عنه ، ولكنه يتحدث أحياناً عن طريق العودة إلى عزة الإسلام ورفعة المسلمين ، ويكاد يجمل ذلك فى أمرين هما : الرجوع إلى « السنة » ، وثقة المسلمين بأنفسهم مع اعتمادهم على مدنيتهم وتراثهم ، فهو يقول مثلا :

« لقد عُرضت اقتراحات كثيرة للإصلاح فى أثناء العقود الأخيرة ، وحاول كثيرون من الأطباء الروحيين تركيب علاج ناجع لجسم الإسلام المريض ، ولكن جهود هؤلاء كلهم كانت إلى الآن عبثاً ، ذلك لأن جميع أولئك الأطباء الحذاق ـ أو على الأقل أصحاب الكلمة المسموعة منهم ـ نسوا أن يضعوا مع هذا العلاج ، ومع الأدوية المعيدة للصحة ، ومع أنواع الإكسير — الغذاء الطبيعى الذى تقوم عليه النقاهة الأولى للمريض . . .

هذا الغذاء الوحيد الذى يستطيع جسم الإسلام فى حالتى صحته وسقامه أن يقبل عليه ، والذى تتمكن أجهزته من امتصاصه بكل تأكيد ، هو سنة محمد . . . لقد كانت السنة مفتاحاً لفهم النهضة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؛ فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم انحلالنا الحاضر ؟ .

إن العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه ، وإن تركَ السنة هو انحلال الإسلام . . .

لقد كانت السنة الهيكلَ الحديدى الذى قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذا أزلت هيكلَ بناءٍ ما ، أفيدهشك بعدئذ أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق » ! .

ويقول : « إن هنالك بلا ريب سبيلا إلى التجدد ، وهذه السبيل بادية بوضوح لكل ذى عينين. تلك السبيل تتحقق بأن ننفض عن أنفسنا روح الاعتذار ، الذى هو اسم آخر للانهزام العقلى فينا ، أو هو إقناع لتشاؤمنا . أما الخطوة الثانية فهى أن نعمل بسنة نبينا على وعى منا وعزيمة ، وليست السنة إلا تعاليم الإسلام نفسها قد وضعت موضع العمل بها ، فباتخاذنا إياها الكلمةَ الفصل فى الاختيار ، وبتطبيقها على كل ما تتطلبه حياتنا اليومية ، نستطيع بسهولة أن نعرف البواعث التى ترد علينا من المدنية الغربية ، وما يجب أن نتقبله منها أو أن نرفضه . . .

وبدلا من أن نُخضع الإسلامَ باستخذاء للمقاييس العقلية الأجنبية ، يجب أن ننظر إلى الإسلام على أنه المقياس الذى نحكم به على العالم » .

ولكننا نلاحظ أن الكتاب يتحدث بأسلوب عام ، ولم يتعرض لتفصيل أو تحديد ، وأغلب عناية صاحبه متجهة إلى فكرتين هما : العودة إلى الإسلام ، والعمل بالسنة بمعناها العام الواسع ، وقد أفاض فى تصوير الأخطار الناجمة عن انسياق المسلمين خلف « المدنية الغربية » ، وفناء شخصيتهم فى « الشخصية الغربية » . . .

* * *

ونحن بطبيعة الحال لم نقصد هنا أن نتتبع كل الكتب التى تحدثت عن تأخر المسلمين وأسباب ضعفهم وعوائق مجدهم وعزهم ، ونحن لا نستطيع ذلك التتبع لو أردناه وحرصنا عليه ، فهناك من غير شك كتب كثيرة عديدة تحدثت عن هذا الموضوع بطريق مباشر أو غير مباشر ، كما أن هناك كتباً أكثر وأكثر ورد فى تضاعيفها حديث أو

إشارات إلى هذا الموضوع ، وإن لم يكن ذلك من أهداف كاتبيها عند شروعهم فى كتابتها ؛ كما أن هناك مئات من الأشخاص كتبوا مقالات أو ألقوا خطباً ، أو نشروا أحاديث ، مما يعد بالمئات إن لم يكن بالآلاف ، ولقد مضى ردح طويل من الزمن والشكوى من تخلف المسلمين وضعفهم وسوء أحوالهم تتردد كل يوم ، إن لم يكن كل ساعة . . .

وهؤلاء الكاتبون والخاطبون والمتحدثون قد تحدثوا — فى الغالب كما أشرت — عن أسباب الانحطاط والتأخر ، وعن علامات الضعف والتخلف ، مما نستطيع أن نقول عنه إنه كان تشخيصاً للعلة وتجسيما للداء .

فهل يمكننا أن نعرض للموضوع من ناحية إيجابية ؟ . . لقد كتبوا وخطبوا عن أسباب الضعف والانحلال ، فلم لا نكتب عن وسائل التقدم والسمو ؟ . . . لقد كتبوا ينقدون ويعيبون ، وقد يكون من الخير أن نكتب لنستنهض ونستثير . . . وما بنا إنكارٌ لفضلِ متقدمٍ أو جهدِ سابق ، فمن وراء معرفة العيب نستطيع معرفة ما يقضى عليه ، وتشخيص العلة : مفتاح لوصف العلاج ، فإذا قال قائل من السابقين مثلا: إن من عيوب المسلمين تعطيلهم فريضة الزكاة ، كان من السهل علينا أن نقول : إن من وسائل تقدم المسلمين تطبيق فريضة الزكاة وإحكام توزيعها على مستحقيها ، وإذا قال قائل آخر : إن من أسباب ضعف المسلمين إهمالهم تكوين الجيوش وتسليحها ، كان من السهل أن نقول : إن من وسائل تقدم المسلمين أن يعنوا عناية كبرى بتكوين جيوشهم وتزويدها بكل ما يمكنهم من العدة والسلاح تنفيذاً لأمر خالقهم الذى يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » . . . وهكذا .

ولقد كان من الطبيعى أن يتحدث الذين سبقوا عن أسباب تأخر المسلمين ، وعن خسارة العالم بانحطاط المسلمين ، وعن عوامل الضعف فى المسلمين ... لأنهم كتبوا ما كتبوه فى زمن كان المسلمون فيه يعانون بلايا ضعف وفرقة وتأخر وذلة ؛ وكان الأمل فى عزة المسلمين يومئذ ضعيفاً لا تنبعث أشعته إلا فى صدور أهل الغيرة والعزيمة من المفكرين والمصلحين ؛ وأما المجموع فقد كان يغط فى سبات عميق ، ولم يكن هذا المجموع صالحاً لأن تحرضه على رفعة ، أو تدعوه إلى اعتزاز وتقدم ، بل قصارى ما تستطيعه معه هو أن تنعى عليه ما هو غارق فيه من ضعف وهوان وانحطاط ، لعل دفعة من دفعات الأقدار تَخِزُه فتوقظه ، فيصلح بعد ذلك لتسكب فى آذانه حديث الصلاح والإصلاح ، ودعوة التقدم والاعتزاز . . .

ولكننا اليوم نشاهد فى آفاق العالم الإسلامى ـ بصفة عامة ـ بشائر حياة ، وبوادر نهضة ، ودلائل وثبة ، وأشعة انبعاث : فكان من الطبيعى ألا نكتفى بالموقف السلبى فننعى على أبنائه ، أو نعدد طائفةً من العيوب فيهم ، أو نجسِّم طائفة من الرذائل عندهم ، بل ننتقل إلى موقف فيه توجيه للهمم وابتعاث للعزائم . . .

والمسلمون قد عرض لهم التأخر والتخلف منذ قرابة ألف عام ، بنسب متفاوتة حسب اختلاف الظروف والأحوال والبيئات ، ولم يكن «الخط البيانى» للضعف فى انحدار على الدوام ، بل كانت تحدث فيه ذبذبات ارتفاع وانخفاض مختلفة ، فينهض المسلمون من وهدة يخلفها بعض العلو ، ويستمر هذا العلو جانباً من الزمن ، ثم تعرض

الطوارئ والعوائق ، فيميلون إلى الانحدار ، وهكذا . . .

ولكن المسلمين برغم هذا الضعف ، وبرغم عوامل الإفناء الكثيرة الهائلة التى سُلِّطت عليهم من هنا ومن هناك ومن هنالك ، ظلوا موجودين ، لم يبيدوا ولم ينقرضوا ، بل تكاثروا وتضاعفوا ، وقد يكون هذا دليلا أى دليل على أنه يكمن فى النفسية العامة لهؤلاء المسلمين من عوامل البقاء ما يتأبى على عوامل الفناء . . .

والإسلام دين - هؤلاء المسلمين - قد ظل باقياً ، برغم هذا التأخر المؤسف الذى عرض لأهليه ، فكتابه القرآن تردده ملايين الشفاه ، وسنة نبيه يتدارسها أهلوه — وغير أهليه — فى المشارق والمغارب ، وأحكام شريعته يبحثها أهلوه — وغير أهليه — برغم ما أصاب هذه الأحكام من تعطيل هنا أو هناك ، وبرغم ما حاوله أعداء الإسلام — وهم أكثر من الكثير — للقضاء على هذا الإسلام . . .

إن هذا دليل — أى دليل — على أصالة الإسلام وصدقه وحقه ، إذ لولا أنه كذلك لانطوى واندثر بسبب هذه الأفاعيل والمكائد ، كما تنطوى دعوات وتندثر مذاهب ، ولصار شيئاً تضمه كتب التاريخ ولا يتصل به أبناء الحياة اتصال تأثر أو تأثير ، ولكن الإسلام ما زال إلى اليوم — وسيظل بمشيئة الله القوى القادر — عقيدةً ومعاملةً عند كثير من الناس . . .

ويخيَّل إلى الكثيرين من قصار النظر أن تأخر المسلمين كان نكبة عليهم وحدهم ، وهذا خطأ فاحش ، فقد كان المسلمون فى عهود قوتهم ورفعتهم قوة كبرى من القوى الأساسية المؤثرة فى توجيه المجموعة

البشرية نحو الخير والسلام والطمأنينة والسعادة ، وكان انحطاط المسلمين نكبة إنسانية عالمية خسرت فيها البشرية كلها ، لا العرب وحدهم ، ولا المسلمون فقط . . . وما أعظم ما ضاع على العالم بسبب حرمان المسلمين من مكانهم الرفيع العزيز القويم الذى كانوا فيه ، ولو أن العالم أحسن التصرف لنفسه لساعد المسلمين يوم ضعفوا على أن يعودوا إلى حيث كانوا ، ليظلوا قوة دافعة بمبادئها وتعاليمها نحو العدالة والسلام . . .

لم يكن تأخر المسلمين وانفلات الزمام من أيديهم زوالا لدولة ، أو ضياعاً لسلطان ، أو استبدالا لملوك بآخرين . ولو كان الأمر كذلك لهان الخطب ، فما أكثر الدول التى تزول ، وما أكثر السلاطين الذين يذهبون . . . ولكن هذا التأخر كان انطواء لمبادئ إنسانية سامية ، وإعراضاً عن شريعة سماوية عاليـــة ، ونكبة فى العقائد والنظم والمعاملات ، أو قل إنه كان خنقاً لروح كريمة نهض عليها كثير من أبناء العالم وساروا بها إلى الأمام .

* * *

ولو أن الضعف الذى أصاب المسلمين كان جزئياً أو قليلا لهان خطبه وسهل علاجه ، ولكن المسلمين صاروا بسبب ما انهال عليهم من نكبات ومثبطات ، وقد بلغوا حالة من الضعف تكاد تكون شاملة ، حتى إن فريقاً من الناس صارحوا باليأس من علاج هذا الضعف ومن بقاء أهليه . . .

صار المسلمون ضعفاء فى الإيمان بالله ، فصاروا يحبون الدنيا ويكرهون الموت ، مع أن الاستخفاف بالموت والترحيب به عند دواعيه

الكريمة شيمة المؤمن الأصيلة ؛ وصاروا ضعفاء فى العلم فأصبحوا عيالا فيه يتطفلون على موائد الغرب ، ويأخذون من غيرهم ، فهم مقلدون متابعون ، ومن واجبهم فى العلم أن يكونوا منشئين متبوعين ؛ وصاروا ضعافاً فى العمل ، وضيعوا الفروض وأهملوا الواجبات ، وتنكروا للعبادات ، وركنوا إلى الأوهام والخرافات ؛ وصاروا ضعفاء فى الحس والمادة ، لأنهم لم يحسنوا طلب دنياهم ، ولم يعمروها بصالحات أعمالهم ، ولم يستغلوا كنوز ربهم الذى خلق للناس ما فى الأرض جميعاً ، وتركوا الأخذ بالوسائل والإقبال على الجلائل ، ضلالةً منهم فى فهم التوكل فهماً ذليلا خاطئاً . فهجمت عليهم الأمراض والعلل ، واستبد بهم الونى والهزال ، فضعفت أبدانهم ، وتقاصرت هاماتهم . . . وصاروا ضعفاء فى الروح والعزيمة ، فقد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، واعتادوا الخور وموات القلوب . وصاروا ضعفاء فى أخلاقهم ، فقد فشت فيهم منكرات وذاعت سيئات وغابت فضائل ، وقد استطاع أعداؤهم أن يغزوهم بالشهوة واللذة والمتاع والمنصب وتميع الخلق والخمر والقمار والمرأة أكثر مما غزوهم بالحديد والنار ، وكم من خئون باع وطنه أو أهله لقاء عرض زائل يستقل به ، أو شهوة عاجلة يحترق فيها دون أن يشعر . . .

وصار المسلمون ضعفاء فى نسائهم ، لأنهن صرن جاهلات محرومات من نور المعرفة والهداية ، معزولات عن مجال المعاونة الشريفة للرجال ؛ وصار المسلمون ضعفاء فى نسلهم الذى يجىء نتيجة للإفراط فى الأهواء ، أو التفريط فى سوائد الحياة الأسرية السليمة . .

وصاروا ضعفاء فى رأيهم العام الذى يجب أن يكون قوياً مجلجلا مزلزلا ، يرفع ويخفض ، ويؤيد ويخذل ، لأن صوت الجماعة من روح الله ، و « يد الله مع الجماعة » كما يقول نبى الإسلام ورسول المسلمين .

وصاروا ضعفاء فى القوة الحسية والاستعداد الحربى والعتاد الحافظ لكيان الأمم وحرياتها ، مع أن كتابهم القرآن يقرع أسماعهم كل آن بمثل قوله تعالى : « وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » وقوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » وقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وكلمة « وَأَعِدُّوا » تفيد استقلال المسلمين بإعداد أسباب القوة وبصنع السلاح ، لا استعارته ولا شراءه مصنوعاً من غيرهم ، فالله لم يقل « واجمعوا » أو « واستعيروا » أو « واشتروا » بل قال : « وَأَعِدُّوا » ، أى بأيديكم وأنفسكم . وكلمة « ترهبون » تفيد كمال الاستعداد مع الاستعلاء ، وتفيد أيضاً لوناً من الانفراد بذاتية الصنع ؛ إذ لو اشتريت سلاحا من غيرك ، ثم عاداك لم تستطع إرهابه وإخافته وصده عن موقف الهجوم عليك ، فعنده مثل سلاحك أو أكثر ، وإنما يتحقق الإرهاب إذا أعددت لعدوك المتربص بك الدوائر ما يجهله ولا يعرف وجهته ، أو ما لا يستطيع سحقه والتسلط عليه . . .

وهكذا نرى أن المسلمين قد صاروا ضعفاء فى الإيمان والروح ، وفى التفكير والعلم ، وفى الأخلاق والعمل ، وفى الكسب والمال ، وفى السلاح والاستعداد .

* * *

ولم يكن هذا الضعف آتياً من قبل الدين كما يزعم الزاعمون ، ولا من طبيعة المسلمين كما يزعم آخرون ؛ ولكن المسلمين بدّلوا فتبدلت حالتهم ، والله تعالى يقول : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ، ويقول : « إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

ونحن نلاحظ أن من أهم الأسباب التى أدت إلى ضعف المسلمين وتأخرهم الاحتلال الأجنبي لبلادهم ، ذلك الاحتلال الخبيث الذى طال عليهم أمده ، والذى استغل ديارهم ، واستعبد أفرادهم ، وأمات فيهم روح التدين والجهاد والنخوة والمقاومة ، وامتص خيراتهم ، وفرقهم مِزَقاً وشيعاً ، وخلق بينهم الأحزاب والمذاهب ، وأغراهم بالمتع والمناصب ؛ ولقد أخذت شمس هذا الاحتلال فى المغيب ، وتحررت ديار فى بلاد الإسلام ، وأخذت بقية الديار طريقها نحو هذا التحرر ، وباستكمال المسلمين لحريتهم فى بلادهم سيتمهد أمامهم الطريق الواسع لكى يَصْحُوا وينطلقوا فى مجالات القوة والتقدم .

وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن الانتقال من حالة العبودية والتبعية إلى حالة الاستقلال والسيادة يحتاج إلى حذر وحيطة ، حتى لا يكون المنتقل كالأسير الذى طال العهد على القيد فى قدميه ، ثم أطلق سراحه فجأة ، فهمّ بأن يعدو مسرعاً فكبا ، أو كالذى عصبوا عينيه فترة طويلة ، ثم كشفوا الغطاء عنهما ، ففتح عينيه دفعة واحدة فى بهرة الضوء ، فكاد يعشو . . .

* * *

وخير ما يفعله المسلمون وهم يستيقظون من سباتهم الطويل ، ويتخلصون من الاحتلال الأجنبي الذميم ، أن يعرفوا أنفسهم ، وأن يحققوا شخصيتهم ، ويجددوا إيمانهم بدينهم ، ويقينهم بربهم ، ويلتزموا فى بصر وبصيرة ما توجبه عليهم عقيدتهم قولا وعملا ، وعلماً وفهماً ، وتطبيقاً وتحقيقاً ، وأن يجددوا ثقتهم بمبادئهم ومُثُلِهِمْ ، ويعتقدوا أن لهم فى العالم رسالة تتلخص فى إسعاد أنفسهم ، ومقاومة المنكر فى دنياهم ، وقيادة غيرهم إلى السلام والاطمئنان والسعادة : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » ، « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » .

وهذا يقتضى المسلمين أن يحسنوا التخلص من ذلك الوهم العميق الخطير الذى أشاعه فيهم بعضهم ليجعلهم يعتقدون أن قدوتهم فى الحياة هى المدنية الغربية المادية بقضها وقضيضها ، لأن هذا الاعتقاد يُوجد فى المسلمين «مركب نقص» يجعلهم يفقدون شعورهم بذاتيتهم ، وإحساسهم بشخصيتهم ، ويغترون اغتراراً مطلقاً بمدنية الغرب ، ويقلدون أهلها تقليداً أعمى .

ونحن لا ننكر أن هناك أشياء كثيرة فى المدنية الحديثة يجب علينا أن نأخذها وأن ننتفع بها ، ولكننا يجب أن نأخذ أخذ الواعين الهاضمين ، لا أخذ المقلدين العاجزين ، وبجوار هذه الأشياء توجد أمور جوهرية نختلف فيها مع هذه المدنية المادية الجارفة ، وليس هذا مكان التفصيل لما يجب أن نأخذ وما يجب أن ندع ، ولكننا فى مقام الإشارة

إلى أن هذه المجموعة الإسلامية الكبرى لا يستقيم أمرها إذا كانت عالة على غيرها أو مقلدة لسواها .

ولقد كرر الباحث النمساوى « ليوبولد فايس » أو « محمد أسعد » الإشارة بتوسع فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » إلى خطر انسياق المسلمين وراء المدنية الغربية بلا تبصر ، فهو يقول : « أسس المدنية الغربية الحديثة لا توافق الإسلام ، على أن هذا يجب ألا يحول أبداً دون إمكان أخذ المسلمين من الغرب ببعض البواعث فى ميدان العلوم المجردة والعلوم التجريبية ، ولكن صلاتهم الثقافية يجب أن تبدأ عند هذا الحد وتنتهى عنده أيضاً ، أما أن يخطو المسلمون إلى أبعد من ذلك ، أو أن يقلدوا المدنية الغربية فى روحها وأسلوب حياتها ، وفى تنظيمها الاجتماعى ، فهو المستحيل ، إلا إذا سُدِّدتْ ضربة قاضية إلى الإسلام كدولة إلهية وكدين عملى » .

ويقول فى موطن ثان : « وفى هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الإسلام أن يظل شكلا أجوف . . . لقد انقضى نومه السحرى الذى دام أجيالا ، فيجب أن ينهض ، أو أن يموت .

إن المشكلة التى تواجه المسلمين اليوم هى مشكلة مسافر وصل إلى مفترق طرق : إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه ، ولكن هذا يعنى أنه سيموت جوعاً ، وهو يستطيع أن يختار الطريق التى تحمل فوقها هذا العنوان : (نحو المدنية الغربية) ، ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه إلى الأبد ، أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التى كُتب عليها :

(إلى حقيقة الإسلام) . إن هذه الطريق وحدها هى التى تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم ، وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حى » .

ويقول فى موطن آخر : « إذا استطعنا أن نستعيد ما فقدناه من الثقة بأنفسنا ، فحينئذ فقط نأمل أن نجعل سبيلنا صعوداً من جديد ، ولا يمكن أن نبلغ هذا الهدف إذا أتلفنا مؤسساتنا الاجتماعية الخاصة بنا ، ثم أخذنا فى تقليد مدنية أجنبية ؛ أجنبية لا بمعناها التاريخى والجغرافى فحسب ، بل بمعناها الروحى أيضاً » .

* * *

ولا شك أن ظلام الجاهلية المادية المسرفة المستهينة بالمعتقدات والمعنويات والروحيات وما وراء المادة قد بسط رداءه الأسود الصفيق هنا وهناك ، وامتدت أطراف قاتمة منه إلى بلادنا الإسلامية التى تعمقت فيها قديما جذور الروح ، وانطلقت منها دعوات السماء . . .

وهذه الجاهلية الحديثة التى أخذت تستشرى وتستفحل بحاجة إلى من يقضى عليها ، ليقيم على أنقاضها شعلة إيمان ويقين ؛ والمسلمون إذا صَحَوْا وَصحُّوا وَصلَحُوا وأصْلَحوا — جدراء بأن يقوموا بواجب الهدم لبنيان الظلم والظلام ، وواجب تشييد دعائم الخير والسلام ، لأن دينهم يفرض عليهم أن يصلحوا أنفسهم أولا ، ثم يصلحوا أمر الناس ثانياً ما استطاعوا بالحكمة والموعظة الحسنة .

والمتتبع المنصف لأيام التاريخ يجد أن المسلمين أثناء عزتهم وقيادتهم أفاضوا الكثير من صلاحهم وإصلاحهم على غيرهم ، حتى قال « روبرت بريفولت » مثلا : « ما من ناحية من نواحى تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير ، وآثار حاسمة لها تأثير كبير » .

وحينما فقد المسلمون القوة والقدرة على التوجيه - بسبب ما ران عليهم ولحق بهم - أصابَ الناس من حولهم ويلاتٌ ، وخسروا ثمرات ، كما ذكرنا ؛ وليس ببعيد ذلك اليوم الذى يستعيد فيه المسلمون مكانتهم وقيادتهم ، فيعيد التاريخ نفسه ، ويفيض المسلمون على الناس فى قابل الأيام ما أفاضوه فى سابقها من خير وبر ؛ والمسلمون يستطيعون بلوغ هذه الدرجة السابقة إذا تحقق لهم إيمان الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، ومجتمع الإسلام ، وسياسة الإسلام . . .

فكيف الطريق إلى هذا التحقيق ؟ ! . . .

الفصل الثالث

فى المجال الدينى

يزعم بعض الكاتبين أن الدين هو علة التأخر والضعف عند المتدينين ، فلكى يتقدم قوم لابد لهم من ترك الدين ؛ ومفهوم هذا الزعم أنه لكى يتقدم المسلمون عليهم أن يتركوا الإسلام .

ونبادر أولا فنقول إنه لايمكن التسليم بأن الدين سبب تأخر أو ضعف ، فالتاريخ يحدثنا مثلا بأن اليونان والرومان كانتا أمتين قويتين ثم أدركهما الضعف عقب تنصرهما ، ولم يكن هذا الضعف راجعاً إلى انتشار المسيحية فيهما ، بل كان مرد ذلك كما قرره الباحثون إلى فساد الأخلاق وانتشار الخلاعة والمجون فى هاتين الأمتين .

ونُقفِّى على ذلك بأن الإسلام كان السبب الجوهرى — إن لم يكن السبب الوحيد — لرفعة أهله قديماً ، فلو أعاد التاريخ نفسه لصلح الإسلام اليوم — كما صلح من قبل — لكى يرتفع بالمسلمين ويُعز شأنهم ؛ ومن القواعد المسلمة أن من لم يعتبر بماضيه لم ينتفع بحاضره ، ومن العبارات المأثورة : « إنما يصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أولها » .

لقد ارتقت الأمة الإسلامية فى صدر الإسلام بهذا الدين الإلهى الخالد العام ، فهو الذى ارتقى بأهله من ضعف الفرقة إلى قوة الوحدة ، ومن ضلال الجاهلية إلى هداية الإيمان ، ومن غيابة الجهالة إلى نور العلم

والمعرفة ، ومن جفوة الطباع إلى مكارم الأخلاق ، ومن سفه الوثنية إلى سمو الاعتقاد فى الله الواحد الأحد ، ومن الاقتصار على عرض الحياة الدنيا إلى اليقين بدار آخرة باقية ، ينعم فيها المرء بفضل عبادته وأخلاقه وآثاره الطيبة فى الحياة ، وحسن معاملته للناس ، لأن الدين المعاملة .

ومن المؤسف أن هناك من يريد عزل الدين عن التأثير فى حياة الفرد والجماعة ، ويتستر بدعوى فصل الدين عن الدولة ، وقد نهض لتفنيد هذه الدعوة كثيرون من المؤمنين بوجوب استضاءة الحياة الفردية والجماعية بضوء الدين ، ويكفينا أن نذكر كلمة للشيخ عبد المجيد سليم كتبها وهو شيخ للأزهر ، فى مجلة « رسالة الإسلام » ، وفيها يقول : « ومن عجب أن بعض رجالنا المثقفين ثقافة غربية قد خدعوا بذلك ، فتراهم مثلا ينادون بإبعاد الدين عن مجال الحكم والتعامل ، وأخذ الأمة بالنظم الحديثة والقوانين الوضعية كما يفعل الأوربيون ، ويقولون إن الدين لله ، فلنقصره على المسائل الروحية ، ولننتفع به فى تهذيب النفوس وكفى .

ويرجع انخداعهم بهذه الفكرة الخاطئة إلى جهلهم بالشريعة الإسلامية وعدم معرفتهم بما فيها من كفالة للحياة السعيدة على أتم وجه وأكمل حال » .

والدين منهاج إلهى إذا نفذه أهلوه كما أراده الله وأنزله سعدوا به وفازوا ، وإذا حرفوه أو اعتسفوا فى أمره جنوا عليه ، وقد يشقون به : والدين كذلك رسالة تتطلب الصالحين لحملها والنهوض بها ، فإذا صار بين أيدى الذين لايحسنون فهمه ، ولايجيدون هضمه ، ولا يحسنون الانتفاع

به الخلل من جهتهم ، أصبح كالسلاح المعطل «ولا يعمل السيف إلا فى يدى بطل» كما قال الشاعر . ومن هنا رأينا عبد الرحمن الكواكبى يقول فى كتابه «طبائع الاستبداد» : «والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة من جميع الأديان تحصر بلية انحطاطها السياسى فى تهاونها بأمور دينها ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة الدين تمسكا مكيناً ؛ ويريدون بالدين العبادة ، ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً ، لكنه لا يفيد أبداً لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه فعل ؛ وذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه ، فإذا صادف مغرساً طيباً نبت ونما ، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات ، أو أرضاً مغراقا هاف ولم يثمر»

ومع ما فى عبارة الكواكبى من بعض الغموض نفهم من مضمونها أن هناك تلازماً بين صلاحية الدين وصلاحية أهله للانتفاع به ، فدين صالح بين قوم غير صالحين شىء مضيَّع ، وقوم صالحون للنهوض مع دين محرَّف لا يبلغون ما يريدون . . .

ومقتضى هذا أن يكون الدين سليماً كما أنزله الله وأراده ، وأن يكون أهله صالحين للنهوض بتبعته ، والخطوة الأولى هنا أن نقيم الدين خالصاً لله الذى أنزله ؛ ولا شك أن التعاليم الدينية قد أضيف إليها خلال القرون المتطاولة كثير من الدخيل عليها أو الغريب عنها ، وإذا كان يراد للمسلمين تقدم ونهوض فأساس ذلك أن يخلّصوا دينهم مما علق به من تحريف أو تخريف ، فقد أصابتنا ألوان من الشقاء والنكبات بسوء ما دخل على عقيدتنا وتراثنا الدينى من أقاويل وأباطيل . . .

وعلاج هذا التحريف يكون بالعودة فى استقاء الدين من مصدريه

الأساسيين وهما : الكتاب والسنة ، وليس معنى هذا أن نضرب بالتراث الفقهى والإسلامى الهائل عرض الحائط ، بل معناه أن نخرج من هذه البلبلة الدينية بتحكيم القرآن والسنة النبوية الصحيحة بين هذا الخضم المتلاطم من المذاهب والآراء ؛ وقد يساعد على تحقيق هذه الخطوة الجليلة إنشاء « مجمع للفقه الإسلامى » تكون مهمته التوفيق بين المذاهب الفقهية عن طريق العودة بها إلى المصدرين الأساسيين للتشريع ، وهما الكتاب والسنة ، على أن يكون القائد هو القرآن ، والرائد بعده هو الحديث .

وهذا يستلزم بطبيعة الحال تصفية التراث الهائل المتعلق بتفسير القرآن الكريم مما لحقه من ضلالات وانحرافات وطفيليات ، كما يستلزم تصفية تراث الحديث النبوى مما أضيف إليه أو أدخل عليه ، حتى تخلص لنا مجموعة الأحاديث الصحيحة التى يصح الاعتماد عليها والاستدلال بها فى تحديد العقائد والأحكام والعبادات والأخلاق وفضائل الأعمال والمعاملات المختلفة .

ونحتاج لتحقيق ذلك إلى ما يلى :

١ — وضع تفسير سليم للقرآن الكريم ، بحيث يكون تفسيراً وسطاً واضحاً ، خالياً من التعقيدات والخلافات والإسرائيليات والأباطيل ، يرضى العقل والقلب معاً ، على أن ينشر هذا التفسير ويترجم إلى لغات المسلمين المختلفة بعد إقراره واعتماده .

٢ — تصفية السنة النبوية مما علق بها ، وجمع ما صحت نسبته إلى الرسول فى كتاب ، وينشر ذلك ويترجم إلى لغات المسلمين للرجوع إليه والاعتماد عليه .

٣ — وضع كتاب معتمد فى الفقه الإسلامى يشمل العبادات

والمعاملات ومختلف الأحكام ، ويبتعد ما أمكن عن الخلافات المذهبية ، ويأخذ بالمجمع عليه ، أو بما هو قريب من الإجماع ، ويعنى بتصوير جوهر العبادات والمعاملات ، دون الانشغال بالتصورات النظرية والفروض الوهمية والخلافات الشكلية ، ويكون الاعتماد فيه على القرآن والسنة ، مع الاستئناس اللازم بجهود السابقين من الفقهاء والباحثين .

٤ — وضع كتاب جديد فى العقائد الإسلامية وما اصطلحنا على تسميته بعلم التوحيد ، أو علم الكلام ، بحيث يخاطب هذا الكتاب العقل والقلب معاً ، ويكون جديداً فى أسلوبه ، وطريقة عرضه ، ووسيلة إقناعه .

ونهدف من وراء هذه المحاولة للعودة بالدين إلى روح الفطرة السليمة الصافية السهلة التى جاء لتحقيقها وصيانتها ، وإلى وصل الدين بالطبيعة البشرية القويمة ، والتخفيف — ما أمكن — من حشد الأذهان بالنصوص والآراء والتفريعات والصور المتخيلة المعقدة ؛ لأن الملاحظ أن اكتظاظ العقول والحوافظ بالمعلومات الدينية يوجد نوعا من قلة التأثر بروعة الدين ، ولونا من عدم الإخلاص فى التقيد بأحكامه ، لأن أبواب التأويل والتخريج ، والتفلت من التبعة ، والاحتيال على التخلص من الواجبات ؛ تتكاثر وتتعدد .

ولعل هذا يفسر لنا شيوع الاستخفاف بأوامر الدين بين عدد غير قليل من رجال ينسبون أنفسهم إلى الدين ويتزيون بزى يومىء إلى أنهم من رجاله أو أعلامه ، ويتظاهرون بمظاهر توهم أنهم من حفظته وسدنته ، وهم فى الواقع على انحراف كبير .

وهناك أناس قلت بضاعتهم من المعلومات الدينية ، ومع ذلك سلمت فطرهم ، واستقامت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، بتأثير البيئة أو القدوة أو التوجيه الصالح ، فهم أصدق إيماناً ، وأسرع استجابة للطاعة والخير ، وأقوى يقيناً من أناس يرددون نصوص الدين كما يرددها « المسجل » ، ثم يجيدون كيف يتفلتون من تبعة الواجب باصطناع الحيل هنا وهناك . . .

ونلاحظ أن الأحكام الفقهية بوضعها الحاضر ، وبسوء نقلها للجمهور ، وبسوء تصويرها للعامة ، يختلط بعضها ببعض ، ولاتحسن العامة التفرقة فيها بين الفرض والواجب والسنة والمندوب والمستحب والمباح ، وقد يوجد بسبب ذلك من يعنى بالسنن والمندوبات ، بينما لايعنى بالفرائض والواجبات ؛ ومثل هذا الخلط يأتى فى الحرام والمكروه وغير المستحب ، فبعض الناس يتحرز من غير المستحب ويرتكب الكبائر .

وقد يكون من أسباب ذلك : التنطعُ فى تفسير بعض الأمور أو الأوضاع الدينية ، مما يلقى على هذه الأوضاع صبغة من الثقل أوالسماجة أوالاستغراب فى نظر العقلاء من المنتسبين إلى الدين وغير المنتسبين إليه ، ولنأخذ كمثال لذلك مسألة « السواك » فالرسول صلوات الله عليه قد جعل استعمال السواك سنة ، ووردت فى ذلك أحاديث حاثة عليه ، والغرض الأساسى من ذلك هو تنظيف الأسنان بالوسيلة المجدية لتنظيفها ، لأن الإسلام دين طهارة ونظافة وذوق ، ولما كان « عود الأراك » هو الأداة الصالحة لذلك على عهد الرسول ، أرشد صحابته إلى استعماله فى ذلك التطهير ، ولو أن النبى صلوات الله وسلامه عليه رأى ما نرى اليوم من وسائل

التنظيف الحديثة للأسنان والفم لأرشد أصحابه إليها وحثهم عليهـا . . .

ولـكن انظر ماذا فعل هؤلاء بأمر السواك . . خصه بعضهم بعود الأراك ، وذكر أنه إذا نقص عن شبر أو فتر كان مخالفاً للسنة ، وأن فتحته تـكون مقدار نصف الإبهام ، ولايزيد سمكه على غلظ الإصبع ، ويسند عند استعماله بباطن رأس الخنصر ، ويمسك بالإصبع الوسـطى ، ويدعم بالإبهام ، وإذا وضعه لايضعه قائماً لئلا يركبه الشيطان !!... وذكروا هيئات وكيفيات لاستعماله وإمساكه وتحريكه وعدد مرات التحريك ، كما ذكروا طائفة من الأمراض والعلل التى يصـــاب بها الشخص إذا خالف هذه الهيئات والكيفيات ! ! . . . إلى آخر ماقالوا مما يبكى ويضحك فى آن واحد !!...

لماذا كل هذا ياقوم ؟ ... إن المقصود هو تنظيف الفم والأسنان بما يصلح للتنظيف أكثر من غيره ، وكفى الله المؤمنين القتال ! . . .

* * *

وهناك واجب على المسلمين يتعلق بالأحكام الدينية ، وهو واجب التوفيق والتنسيق والترتيب لها ، فإن هذه الأحكام الدينية قد يلوح لنا أن بينها اختلافاً أو تناقضاً ، مع أننا لو أنعمنا النظر فى هذه المسـائل ، وفى الأقوال المتعددة الواردة فيها ، وقارنـّا بينها ، وعرفنا مناسبة كل منها ودليله ، لاستطعنا أن نقضى على أكثر هذا الاختلاف ، إن لم نقض عليه جميعه بالوصول إلى مرتبة التوفيق بين هذه الأقوال ، وتخصيص كل قول بحالته الملائمة له . .

إن الدين الإسلامى فى كثير من أحكامه يورد الحكم بأكثر من صورة ، لأنه يريد بكل صورة حالة من الأحوال ، وأحياناً يأتى الحكم وله ثلاث شعب ، أوثلاثة أطراف ، فطرف أعلى ، وطرف أدنى ، وطرف وسط . . ولكل من هذه الأطراف زمانه ، ومكانه ، وحالته ، فلا يكون هناك بينها اختلاف .

وأعتقد أن الطرف الأعلى للحكم — وهو طرف التشديد — يكون فى حالات العلاج والتأديب والتهذيب ، والحد الأدنى — وهو الأسهل الأيسر — يكون عند الضرورة ، وعند وجود الأعذار ، وأن الحد الوسط هو الحد المعتاد الذى يتبع فى العادة .

فلنأخذ مثلا لذلك موضوع الحرب والسلام كما يصوره القرآن الكريم . . . إننا نراه يدعو تارة إلى القتال الشديد العنيف ، وتارة يدعو إلى الأمن والسلام العام ، وتارة ثالثة يدعو إلى الاستعداد والإعداد والمعاملة بالمثل ، وقد يظن ظان أن ذلك تناقض أو اختلاف ، وليس هناك فى الواقع تناقض ولا اختلاف .

إن القرآن الكريم يدعو إلى السلام العام فيقول مثلا : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » ويقول : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » ويقول : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ويقول : « يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً » ويقول : « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ » .

وإنما يكون ذلك فى الأحوال الصالحة لنشر السلام والتبشير به ، وبين القوم المستعدين لتقبل دعوة السلام ، وأما حين يستعلن الكفران ببغيه والشرك بطغيانه ، وحين تتعرض الحرمات للانتهاك ، ويداس

وطن الإسلام ، فهنا يدوى النفير العام ، وهنا يحرض القرآن على القتال العنيف الشديد فيقول: «يا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » ويقول : « فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ » ويقول : « فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » ويقول: « يا أَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتالِ ».

فإذا دفع المسلمون عن أنفسهم عار الاحتلال والاستعباد والهوان ، كان عليهم بعد ذلك أن يؤمّنوا حريتهم ، وأن يحفظوا أمتهم ، وأن يحرسوا ديارهم ، فيحسنوا الاستعداد للمفاجآت ، ويقفوا للطوارئ بالمرصاد ، فإذا حدث عدوان من أحد قابلوه بالمثل ، وشرعة المماثلة هي أجدى الوسائل لحفظ السلام ، ولذلك يقول القرآن : « وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ » ويقول : « وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » ويقول : « فإنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوُا السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً » ويقول : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

فأنت ترى أنه قد أمكن التوفيق بين الآيات الكثيرة الواردة فى شأن الحرب والسلام ، وعرفنا من هذا التوفيق أن لكل طائفة من هذه الآيات هدفها ومناسبتها ، فلا تعارض بينها وبين الآيات الأخرى .

ومن الممكن أن نقوم بمثل هذا التوفيق وذلك التبويب لو توافرت العزائم وخلصت النيات ، ولقد حاول الفقيه عبد الوهاب الشعرانى فى

كتابه « الميزان » أن يفتح الباب أمام الباحثين فى هذا المجال ، وهو يقول فى مقدمة هذا الكتاب : « وما ثم قول من أقوال علماء الشريعة خارج عن قواعد الشريعة فيما علمناه ، وإنما أقوالهم كلها بين قريب وأقرب ، وبعيد وأبعد ، بالنظر لمقام كل إنسان ، وشعاع نور الشريعة يشملهم كلهم ويعمهم ، وإن تفاوتوا بالنظر لمقام الإسلام ، والإيمان ، والإحسان » .

ويقول أيضاً : « وكما لا يجوز لنا الطعن فيما جاءت به الأنبياء مع اختلاف شرائعهم ، فكذلك لا يجوز لنا الطعن فيما استنبطه الأئمة المجتهدون بطريق الاجتهاد والاستحسان ، ويوضح لك ذلك أن تعلم يا أخى أن الشريعة جاءت من حيث الأمر والنهى على مرتبتى تخفيف وتشديد ، لا على مرتبة واحدة ، كما سيأتى إيضاحه فى الميزان ، فإن جميع المكلفين لا يخرجون عن قسمين : قوى وضعيف ، من حيث إيمانه أو جسمه ، فى كل عصر وزمان ، فمن قوى منهم خوطب بالتشديد والأخذ بالعزائم ، ومن ضعف منهم خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص ، وكل منهما حينئذ على شريعة من ربه وتبيان » .

وسار الشعرانى فى جزئى كتابه «الميزان» يستعرض أحكام الأبواب الفقهية على هذه القاعدة ؛ ولكن مجهوده مع قيمته ومكانته مجهود فردى لا يكفى ولا يشفى ؛ والواجب على المسلمين هو أن تعكف طائفة من علمائهم القادرين على التوفيق بين هذه الآراء ، وتقسيمها بحسب مناسبتها وظروفها ، وبذلك لا يتبلبل ذهن المطالع لأحكام الدين الإسلامى أمام هذا التعدد الظاهرى والاختلاف العرضى .

* * *

ومما يحتاج إلى علاج انشغال جمهرة كبيرة من المسلمين بموضوعات سطحية لا تعتبر أصلية فى الدين ، بينما يتركون الموضوعات الجليلة الخطيرة التى تتعلق بأصول العقيدة أو تتعلق بجوهر النظام الإسلامى ، أو ترتبط بقواعد المجتمع الإسلامى . . . فهذه جهود تضيع وبحوث خلافية تقوم من حين إلى حين حول : العمامة والعذبة واللحية والقبعة والبذلة الافرنجية وكشف الرأس ، وإمساك المسبحة وتجويف المحراب والصلاة على الرسول بعد الأذان ، وإقامة القباب على الموتى وزيارة القبور وزيارة الأضرحة ، وحلق الشعر أو إطالته ، وقص الشارب أو إطلاقه ، وإطالة الصلاة أو تقصيرها ، وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة . . . إلخ .

ونحن لا نعارض فى تنقية الدين مما علق به من خرافات وزيادات ، مما يتعلق بالرسل والأنبياء ، أو بالعبادات والأذكار ، أو بالمظاهر والأشكال ، أو بالأضرحة والقبور ، أو بالتوسل والتوكل ، أو بالتمائم والتعاويذ ، أو بالتصوف والتشيع ، أو بالمواسم والموالد ، بل لقد دعونا إلى ذلك مراراً ، ولكننا نريد أن نقدم الأهم على المهم ، والمهم على التافه ، ونريد أن ينتهى المسلمون إلى كلمة سواء فى هذه الأمور كلها ، بحيث تكون هذه الكلمة عادلة وفاصلة فى آن واحد ! ! . . .

* * *

ومن الأمور الداخلة فى نطاق الإصلاح للمجال الدينى حتى ينطلق المسلمون من إسارهم ، ويحققوا مجدهم وعزهم ، أن يحسن المسلمون فهم مسألة القضاء والقدر ، وأن يحسنوا فى الوقت نفسه تفهيمها لغيرهم ، حتى

لا يظل غير المسلمين يتهمون الإسلام بأنه جنى على أبنائه حين أخضعهم لعقيدة الجبرية ونظرية أن « المكتوب على الجبين لازم أن تراه العين »!.

لقد تسلطت على عقول الكثيرين من المسلمين فكرةُ أن التدبير لا يمنع التقدير ، وجعلوا هذه الفكرة داعياً من دواعى التثبيط عن السعى والعمل ، ونسى هؤلاء أن تدبير الإنســـان جزء من التقدير ، فإن من قدر الله وقضائه أن خلق هذا الإنسان ، وأعطاه ما أعطاه من المواهب والملكات والطاقات ، وكلفه السعىَ والكسبَ والتفضيلَ بين الأشياء ، والتمييزَ بين الخير والشر ؛ ففى القرآن الكريم : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » ، « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ » ، « أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » ، « إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » . . . إلخ .

إن أمر هذا العالم موكول إلى خالقه ومبدعه الله العليم الحكيم ، القادر المسيطر ، والإيمان بهذا يوجد فى نفس الإنسان الساعى قوة ورضى وطمأنينة ، فهو فى حراسة الله ، وهو حين ينطلق على هدى الله إلى ما يرضى الله مصحوب بعناية الله ورعايته ، وهذا الإيمان يجعل الإنسان ينهض بواجبه قدر طاقته ، ثم يدع النتائج لله العلى الكبير ، ولى العاملين ومثيب الساعين ، بل ويجعل الإنسان يقدم على المخاطر والأهوال فى جسارة وجرأة ، كما يقول الإمام على :

أى يومىَّ من الموت أفر	يوم لا يُقْدَرُ ، أم يوم قُدِرْ
يوم لا يُقدر لا أحـــذره	ومن المقدور لا ينجو الحذِرْ !

والإنسان قد أعطاه الله حساً ونفساً ، وعلماً وقدرة على العمل ، وطاقة وموهبة ، ومن واجب الإنسان كما طالبه ربه أن يستغل ذلك كله حسبما يستطيع ، فإذا خرج الأمر عن نطاق الاستطاعة والطاقة ، وجرت الأقدار العليا بغير ما أراد الإنسان لحكمة بادية أو خافية ، جاء الإيمان بالقدر ليكون ملطِّفاً ومخففاً ، وحسن حينئذ أن نردد قول الرسول : « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له » ! . . .

* * *

ويتصل بمسألة « القضاء والقدر » مسألة « الدعاء » . . . إن آلافاً من الناس يقتصرون على ترديد الأدعية الميتة بموت أصحابها ، فى حلقات الذكر ، أو فى خلوات التصوف ، أو عند الأضرحة ومثاوى الأولياء ، ويعتقد هؤلاء أن كل المطلوب منهم هو تحريك ألسنتهم وشفاههم بتلك الدعوات ، فيفعلون ذلك ، ثم ينتظرون فى كسل وجمود ، فإذا لم يتحقق لهم ما أرادوا غضبوا وثاروا ، أو عصفت بصدورهم الشكوك والأوهام ، وبذلك تضيع أوقات وجهود ، كما تزهق روح الاستجابة العملية التى أرادها الإسلام من الداعى حين يردد دعاءه ، فإن الداعى الواعى إذا تمعن فى معانى الكلمات التى يدعو بها ، ثارت هذه المعانى فى نفسه ، وذكَّرته بما يجب أن يكون عليه من خير وفضل ، وجد وعمل ، وما يجب أن ينأى عنه من شر وعجز ، وجمود وكسل ، فيندفع بحسه ونفسه فى مسالك هذه الاستجابة وأسبابها ، فيكون أهلا لإعانة الله له ، وتحقيق الأقدار لما أراده فى دعائه . . .

والمسلمون يتقدمون كثيراً فى الناحيتين الحسية والمعنوية إذا أحسنوا فهم المقصود من الدعاء ، وإذا أحسنوا الانتفاع بفترات هذا الدعاء ، فجعلوا هذه الفترات كالوخزات التى تحيى ما همد أو ركد من طاقات النفس وحوافزها ، أو كالجلوات التى تنفض عن الحس والنفس ما لحق بهما من ونى وتعب ، فإذا الدعوات حوافز روحية تدفع بالإنسان أثناء التدبر العميق لمعانى ما يدعو به - إلى الأسباب الموصلة لتحقيق هذه المعانى التى يديرها بعقله ، ويخطرها بقلبه ، ويرددها بلسانه . . .

وكأنى أفهم أن الله تبارك وتعالى يشير إلى هذا المعنى فى قوله عز من قائل: « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » . فإن الله تعالى يذكّر عباده فى مقام الدعاء ومقام التحقيق لهذا الدعاء - بالاستجابة وهى إقبال عملى على مواطن الرضى الإلهى ومواقع الطاعة المقبولة ؛ وبالإيمان ، والإيمان تصديق ويقين يصحبهما عزم وهمة وتصميم ؛ وبالرشد ، والرشاد يفيد الصواب فى العمل ، والموافقة للحق ، والمصاحبة لما يجب . . .

وليس هذا الفهم بعيداً مما يقوله المفسرون فى معانى كلمات الآية الكريمة ، فهأنذا أمد الآن يدى عفواً إلى تفسير « البيضاوى » الوجيز ، وأراجع معنى هذه الآية فيه ، فأجده يقول : « (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) أى فقل لهم : إنى قريب ، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم ، واطلاعه على أحوالهم ، بحال مَنْ قَرُبَ مكانُه منهم . روى أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أقريب ربنا

فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت . (أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) تقرير للقرب ، ووعد للداعى بالإجابة (فليستجيبوا لى) إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم (وليؤمنوا بى) أمر بالثبات والمداومة عليه (لعلهم يرشدون) راجين إصابة الرشد ، وهو إصابة الحق » .

وفى الحديث : « الدعاء مخ العبادة » أى أن الدعاء هو كالعقل الواعى للعبادة المذكِّر بها ، فالداعى يستثير كل جوارحه وحواسه ، لتكون حاضرة مهيأة للاستجابة ، ومعنى العبادة واسع فسيح ، فكل عمل طيب بنية طيبة يكون عبادة .

وفيه أيضاً : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه » أى ادعوا الله بحيث تكونون على حالة تستحقون فيها الإجابة ، وهى حالة العمل والطاعة والمجاهدة ، وأما الدعاء فى غفلة عن الواجب أو لهو عن العمل فهو غير جدير بالاستجابة ! ! . . .

وحينما قال عمر الفاروق : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويرفع يديه نحو السماء ويقول : اللهم ارزقنى ؛ وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » ثم يحث على العمل والجد ... حينما قال عمر ذلك أراد أن يعلمنا هدى الإسلام فى الدعاء ، إذ لم يُشرع الدعاء ليكون تمتمة سلبية ، وترديداً لكلمات دون استشعار لمعناها أو استجابة لمغزاها ، وإلا كان ضرباً من ترديد الأمانى « والأمانى بضائع النوكى » ـ أى الحمقى ـ كما قال الأول ، وإنما الدعاء لون من الإيحاء : تردد الشفاه الكلمات ، فيحسن

العقل تلقى معناها ، ويحسن القلب الاستجابة للتأثر بهذا المعنى . ويشيع هذا التأثر فى الإنسان ، وينتقل من مجال النفس إلى مجال الحس ، فتشرع الهمة فى تسخير الأعضاء والحواس ، فيرتفع المرء إلى درجة الرضا الإلهى ، فيستحق منه الرعاية ، ويكون أهلا لموطن العناية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ..

وحينما نرجع إلى روضة السنة المطهرة نجد فيها من الأدعية ما نستطيع أن نعده لوناً من التحريض على إثارة معانى العزم والحزم والتصميم فى نفس من أصابه فتور أو حزن . وكأن الدعاء فى هذه الحالة حمام ساخن للبدن والنفس معاً ، يعمهما بمائه الطهور ، فيوجد فيهما اليقظة والانتباه والاستجمام ، ويدفع بهما إلى مواصلة المحاولة فى سبيل البلوغ لما يريده الإنسان : أو كأن هذه الأدعية ألحان حماسية مثيرة ، يرددها الداعى بفمه ، ليسكبها فى أذنه ، فتبلغها إلى عقله فيعقلها ، ويوصلها عقله إلى قلبه فيتأثر بها ، فتثور عواطفه وطاقاته ، وتتجدد عزيمته وهمته ، ويحس المرء كأن مدداً جديداً من الأمل والرجاء والعزم قد تدفق فى أرجاء نفسه ، فيعاود المحاولة ، ويطرد عن ذهنه أشباح التداعى والتراخى والقنوط ...

لقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال له : يا أبا أمامة ، مالى أراك جالساً فى المسجد ، فى غير وقت صلاة ؟! . قال أبو أمامة : هموم لزمتنى وديون يارسول الله . قال النبى : أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ؟ . قال أبو أمامة : بلى يارسول الله . قال النبى: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،

وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال . . قال أبو أمامة : ففعلت ذلك فأذهب الله همى ، وقضى عنى دينى ! ! . . .

وأرجو أن نطيل التأمل والتدبر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة » ؟ . كأن المكان الطبيعى للرجل فى غير وقت الصلاة هو مجال العمل والكسب . . . وفى قوله : « إذا أصبحت وإذا أمسيت » كأنه يعلمه أن يجعل حديث التصميم والعزم والتأبى على الضعف فاتحة يومه وخاتمته ، ليكون ذلك محرضاً دائماً لحسه ونفسه . . وفى قوله : « اللهم إنى أعوذ بك . . . » فهو هنا يستعيذ بالله من شر قبيح ، ومن شىء يفر منه الإنسان إلى من يعصمه منه . . . وفى قوله : « غلبة الدين وقهر الرجال » كأن الداء الدوى فى الإنسان هو أن يستسلم فيصبح مغلوبا أمام مشكلة ، أو مقهوراً لغيره من الناس .

أليس هذا تحريضاً قوياً على الإحساس بمعانى الدعوات ، والاستجابة لما يليق بالكريم عند تذكر معانيها من جد واجتهاد ؟ ! . . .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قلما يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات : اللهم اقسم لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ماتبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ماتهون به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا [1] ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ،

---

(١) أى المذكور من الاسماع وما معها . أى متعنا بما ذكر طول حياتنا وانفعنا بآثاره بعد الموت .

وانصرنا على من عادانا ، ولاتجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولاتسلط علينا من لا يرحمنا » .

ومن دعوات الرسول قوله : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة من كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

إذن فلنجعل الدعاء من هذا اللون الإيجابى — إذا صح هذا التعبير — حتى تكون عملية الدعاء عملية استثارة للنفس ، وتنبيه للحس، وإيقاظ للعزم ، ودفع بالهمة إلى الأمام فى مضاء . . . وما أجمل هذا الدعاء الذى يردده أحد المربين المعاصرين : « اللهم هبنى الصبر والقدرة ، لأرضى بما ليس منه بد ، وهبنى اللهم الشجاعة والقوة ، لأغير ما تقوى على تغييره يد ، وهبنى اللهم السداد والحكمة ، لأميز بين هذا وذاك » ! ! . .

ومن ألوان الدعاء الإيجابى الحافز هذه الأبيات للأستاذ الشاعر محمد مصطفى حمام :

ربنا اجعلنا أصح الناس دينا	واجعل الدنيا لنا خفضاً ولينا
ربنا واطبع ذرارينا على	سنة التقوى بنات وبنينا
وتغمد والدَينا بالرضا	واجعل الغفران عقبى لذوينا
وازرع الرحمة فى أنفسنا	واكفنا بأس العتاة الظالمينا
وإذا أوليتنا يارب نعما	ء فصنها من عيون الحاسدينا
وإذا أنزلت ضراء بنا	فاجزنا عنها جزاء الصابرينا
وإذا ما انكشف الضر فألهمـ	ـنا وفاء الأوفياء الشاكرينا

رب بصرنى بدينى ، وأقم لى على الجاحـــد سلطاناً مبينا
أغننى يارب عن عون الورى ثم لاتغن الورى عنى معينـا
أعطنى أعط ، وكن جاهى أكن جاهَ من ألقى من المستضعفينا
وأطل عمرى ، وأوزعنى أن أنفع الناس خصيما وخـــدينا
ثم هيىء لى عن الدنيا رحيلا لا أقاسى فيه ســـقما أو أنينا !

وحينما يفهم المسلمون الدعاء هذا الفهم ، ويخلصون فيه ، ويقرنونه بالعمل والمسارعة إلى ما يريده الله ، يكون الله عونهم ومعهم ومؤيدهم ، ويكسبون خيراً كثيراً ، ويخطون خطوات واسعة نحو رقيهم المادى والأدبى .

* * *

ومن الإصلاح الدينى الذى يرقى به المسلمون ويتقدمون : القضاء على فضلات التنطع والتشديد فى الدين ، فهناك فئة من الناس يصورون الدين على أنه حدود مرهقة وقيود مضايقة ، وبذلك يبدون الدين غير مساير للفطرة ، وغير مساوق للمدنية ، وهذه الفئة قد تخصصت ببراعة مؤسفة فى التحريم والتشديد ، ولها قدرة مؤلمة على تنفير الناس من الدين . ويكاد الباحث يلحظ أن هجران الكثيرين لساحة الدين هو من اعتقادهم أن الدين سيحرمهم الكثير من فرص الحياة ومن الحرية البشرية التى يتمتعون بها ، وسيدخلهم فى قفص من حديد ، لا يسمح لهم بالتنفس داخله إلا بمقدار ، ولا يأذن لهم بالخروج منه إلا فى فترات قليلة متباعدة ، وهذا تصوير خاطىء للدين السمح السهل ، وإنما الدين تنظيم للحياة وتلطيف لحدتها التى التى توجد فى حالة الإفراط أو حالة التفريط ؛ وفى مصدرى الشريعة

وهما الكتاب والسنة نصوص كثيرة تشير إلى تيسير الدين وتخفيفه ، ففى القرآن الكريم هذه الآيات : « لا تَغْلُوا فى دينكم » ، « يُريد الله بكم اليُسْرَ ولا يُريد بكم العُسْرَ » ، « ونُيَسِّرُكَ لليُسْرَى » ، « وَيَضَعُ عنهم إصرهم والأغلالَ التى كانت عليهم » ، « لا تُحرِّموا طيباتِ ما أَحل الله لكم » ، « لا يكلِّف اللهُ نفساً إلا وُسْعَها » .

وفى الحديث هذه النصوص : « يسِّروا ولا تعسروا ، وبشِّروا ولا تُنفِّروا » ، « هَلَكَ المتنطعون » ، « عليكم من الأعمال ما تطيقون » ، « ليصلِّ أحدكم نشاطَه ، فإذا فتر فليقعد » ، « خير دينكم اليسرة » ، « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » ، « بُعثت بالحنيفية السمحة » ، « إن الله يحب أن تؤتى رخصُه كما تؤتى عزائمه » .

* * *

ونحن حين ننظر إلى الدين الإسلامى من جهة المبادئ والنظريات نجد أنه قد أتى بالمثالى الجامع المانع ، وإذا نظرنا إليه من ناحية التطبيق نجده قد طالب بالمستطاع ، ولم يترك للتيسير باباً إلا ولجه ، ولا مسوِّغاً للرحمة إلا احترمه وقدره ، وإذا نظرنا إليه من جهة التكليف نجد أنه قد راعى التدرج والتطور والعموم والمطاوعة ، فكان الإسلام بذلك فى الفكرة « مثالياً » ، وفى الحياة « واقعياً » ، وهذا غاية ما نتطلبه من كمال فى دين إلهى يأتينا من السماء . . .

وهناك آية كريمة فى كتاب الله تعالى ترمز إلى مثالية الإسلام ، وهى قوله تعالى : « يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا اتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ، وحقُّ تقوى الله — كما رُوى —

أن يُطاع الله فلا يُعصى ، ويشكر فلا يُكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، أو أن تُتقى جميعُ محارمه ومعاصيه ، وتُؤتى جميعُ أوامره وواجباته ، وأن يجاهد المرء فيه حق الجهاد ، وألا تأخذه فيه لومة لائم ؛ ولو حقق الإنسان ذلك لقارب درجة الملائكة الأبرارالذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وهناك حديث نبوى يرمز إلى واقعية الإسلام وتيسيره ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « إن هذا الدين متين ، فأوغِلْ فيه برفق ، فلن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه الدين ، وإن المنبتَّ لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » . وهذا تعليم من الرسول لأتباعه بأن يعتدلوا ويتوسطوا ، ولا يسرفوا أو يغلوا ، حتى لا ينقطعوا أو يملّوا ، ولذلك جاء فى الحديث: « إياكم والغلوَّ فى الدين » .

وبين مثالية الآية الكريمة وواقعية الحديث الشريف يبدو منهج الإسلام الحنيف الذى لا إفراط فيه ولا تفريط . .

والواقع الأليم أن محنة أهل الإسلام الكبرى تتجسم فى فريق يُفرط ويعتسف فى هذا الإفراط ، وفريق يفرّط ويسرف فى هذا التفريط ، فلا الفريق الأول أفاد ، ولا الفريقُ الآخر أجاد ، وبينهما تضيع الخطة العادلة الراشدة ! .

ويكاد يكون أوضح وصف لأمة الإسلام فى هذا المقام هو قوله تعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » . والوسط ـ كما تحدثنا اللغة العربية ـ هو العدل والخيارمن كل شىء ، وواسطة القلادة هى الجوهرة التى تكون فى الوسط ، وهى أنفر ما فى العقد .

وقد جعل الله أمة محمد وسطاً ، لا إفراط فيها ولا تفريط ، ولا غلو عندها ولا إهمال ، ولا تحلل فيها أو تعمل ؛ وبذلك تصلح أن تكون شاهدةً على الناس بأعمالهم التى خالفوا فيها ربهم ، ولا يصلح المرء للشهادة إلا إذا كان تقياً نقياً غير مجروح أو مطعون ، ومعنى هـذا أن أمة محمد تعلو بتوسطها غيرها من الغالين أو المهملين ، فتصلح للشهادة على سواها ، ثم يكون الرسول شهيداً على هذه الأمة العالية السامية ، لأن الرسـول يتمثل فيه الكمال البشرى ، فيكون أهلا للشهادة على الشاهدين على الناس ، وليس وراء ذلك تكريم من الله لأمة الإسلام ورسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام . . .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم دستور الدين الأول نجد أنه قد ذكر الوسط والتوسط فى طائفة من المواضع ، فيقول فى شأن الصلاة : « حافِظوا على الصَّلواتِ والصلاةِ الوُسْطى ، وقُومُوا لله قانِتين » . ويقول فى كفارة اليمين : « فكَفَّارَتهُ إطعامُ عَشَرةِ مساكِينَ من أوسطِ ماتطْعمون أهليكم » . ويقول عن قصة أهل الجنة : « قال أوسطُهم : ألمْ أقُل لَكمْ لوْلا تُسبِّحُون » . ويقول عن الخيل المجاهدة : « فَأثْرنَ بِهِ نَقْعاً ، فوَسطْنَ بِهِ جَمْعا » . وقد جاء ذكر « الوسط » كما رأيت فى هذه الآيات فى مقام الحمد والثناء ، أو القبول والارتضاء .

ولقد قال الإمام على : « خير الناس هذا النمط الأوسط : يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » . ومن كلام على أيضاً : « لا يُرى الجاهل إلا مفْرِطا أو مفرِّطا » .

ولقد جاء أعرابى إلى الحسن فقال له : « علِّمنى ديناً وَسوطا ،

لا ذاهباً فروطا ، ولا ساقطاً سقوطا ، أى ديناً وسطاً معتدلا ، ليس مغالياً فى التشديد والإفراط ، وليس مسرفاً فى النزول والسقوط ، فأعجب الحسن بكلامه وقال : « خير الأمور أوساطها » .

وفى حديث مطرف بن عبد الله لابنه : « خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة » . والحقحقة أرفع السير وأتعبه للظهر .

وهناك فوق هذا آيات تتحدث عن تيسير الله ورحمته بعباده وجعله التكليف لهم يسيراً سهلا ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها كما يقول القرآن ، فمن تلك الآيات قوله : « ثُمَّ السبيلَ يَسَّرَه » ، « سيجعل اللهُ بعدَ عُسْرٍ يُسْراً » ، « وقُلْ لهُمْ قوْلاً مَيْسُوراً » .

وكذلك ذكر القرآن الكريم التخفيف فقال : « ذلكَ تخفيفٌ من ربكم ورحمة » ، « يريد الله أن يخفِّفَ عنكم وخُلِق الإنسانُ ضعيفاً » ، « الآن خفَّفَ الله عنكم وَعَلِمَ أن فيكم ضَعفا » . وكذلك نفى القرآن الحرج وهو الضيق الشديد ، فقال : « ما يُريد اللهُ ليجعلَ عليكم مِن حَرَجٍ » ، « كتابٌ أنزلناه إليك فلا يكُنْ فى صَدرك حَرَجٌ منه » ، « ولا على الذين لا يَجدون ما يُنفِقون حَرَجٌ إذا نَصَحوا لله ورسوله » ، « ومن يُرِدْ أن يُضلَّه يَجعلْ صدرَهُ ضيِّقًا حَرَجا كأنما يصَّعَّدُ فى السماء » .

ومن هذه النصوص ندرك فى سهولة أن الله تعالى أراد لعباده ديناً وسطاً ، بلا إهمال ولا إسراف ، وأراد به التيسير والتخفيف ، ولم يرد لهم الحرج أو الإرهاق . ومن واجب الدعاة أن يُطلعوا الناس على جوانب اليسر والرحمة فى هذه الملة السمحة الغراء ، وأن يرتدع الذين

يتشددون فى الدين ويتنطعون ، لأنهم بهذا ينفّرون ولا يتألفون ، والمسلم إلف مألوف . . .

وهذا التنفير المتولد من الجمود هو الذى يؤدى ببعض الأغرار إلى الجحود ، وبهذا يضيع الدين بين جاحد وجامد . فالجامد لا يريد أن يتنقل ، والجاحد بسبب هذا يتحلل حتى يجحد . . . وتنشب معركة بين الجامدين والمتحررين ، ونرى هؤلاء الجامدين يرمون القذائف من أفواههم وأقلامهم واصفين من استعمل اجتهاده فى مسألة فرعية أو خلافية ، أو عارضهم فى رأى من آرائهم — بالكفر والإلحاد والزندقة ، فتنشأ عداوات ، وتتمزق علاقات ، وتضيع ثمرات ، مع أن أقوال الأئمة والفقهاء متضافرة على النهى عن تكفير أحد من أهل القبلة ، ولو كان مخالفاً فى الرأى أو عاصياً . فأبو حنيفة يقول : « لا أكفّر أحداً من أهل القبلة » . والأوزاعى يقول : « لو نشرت بالمناشير لا أقول بتكفير أحد من أهل الشهادتين » . وأبو الحسن الأشعرى يقول : « اختلف المسلمون بعد الرسول فى أشياء كثيرة ، حتى تباينوا فرقاً ، إلا أن الإسلام يجمعهم ويعمهم » . وابن تيمية يقول : « لا أحكم بكفر أحد من أهل القبلة » . والحسن البصرى يقول : « إن جميع أهل التوحيد يدخلون الجنة » . وابن عيينة يقول : « لأن تأكل لحمى السباع أحب إلىّ من ألقى الله بعداوة من يدين لله بالوحدانية ، ولمحمد بالنبوة » . وسفيان الثورى يقول : « لا تحل عداوة موحد ، وإن مال به الهوى عن الحق » . والنبهانى يقول : « لا أعتقد ولا أقول بتكفير أحد من أهل القبلة » .

ولقد كان لعمر بن ذر جار توفى ، وكان الجار مسرفاً على نفسه ، فتحامى

الناس جنازته ، فشهدها عمر ، ولما دفن وقف عمر على قبره وقال : « رحمك الله أبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت وجهك لله بالسجود ، فإن قالوا : مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا » ؟ ! . . .

بهذه الروح السمحة المتعالية عن الأحقاد والضغائن وسوء الظنون يجب أن يتعامل أبناء الإسلام فى كل مكان . . .

* * *

وهذا المقام يذكرنا بهذه المذاهب الدينية والفرق الإسلامية التى تعددت وتخالفت وتعادت ، فهناك مذاهب الأئمة الأربعة ، وهناك غيرها من مذاهب ، وهناك السنة والشيعة بفرقها وطوائفها ومنازعها . . ولا بد للمسلمين — إذا أرادوا أن يتقدموا ويعزوا — من علاج أمر هذه الفرق بالتقريب والتوفيق والتجميع ، وهذا يستلزم بطبيعة الحال مباحثة ومدارسة ، حتى يستبين الحق ويتضح المهيع ، وبقاء هذه المذاهب والفرق على ما هى عليه من تنافر وتنابذ معوق شديد لنهضة المسلمين وقوتهم ورفعتهم .

وفى خلال السنوات الأخيرة كتب كاتبون وصرح مصرحون بوجوب التقريب بين المذاهب ، وبوجوب التسامح وترك العصبية المذهبية ، ولكن هذه التصريحات كانت عاجلة محدودة لم يتبعها جهد مؤثر فعالى ، وقد حدا بى هذا إلى أن أكتب فى الموضوع ، فقلت فى مقالة نشرتها الأهرام فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٥ العبارة التالية :

« الدعوة إلى التسامح ومحاربة العصبية وترك الحدة فى نقد المذاهب الإسلامية دعوة كريمة لها سوابقها ، وسيكون لها لواحقها ما دام هناك مسلمون يؤمنون بالله ويعملون لوجهه ؛ فالملة الإسلامية السمحة قد جاءت لتكون دين التوحيد والوحدة ، فوحدت الأصل والغاية والمعبود والكتاب والرسول والقبلة ، وكل ما يصلح للتوحيد وما يمكن فيه الاتحاد . . .

وماضى هذه الأمة المؤمنة حاشد بمئات النصوص والشواهد والمواقف الدالة على التسامح والرفق والإخاء وحسن الظن ، والنهى عن تكفير أهل القبلة ولو انحرفوا فى جزء أو فرع ، وسير الأئمة والفقهاء يعطرها تبادل التوقير والاحترام ؛ وأخشى أن تكون آفة التزيد فى الرواية منذ القدم هى التى أضافت إلى أمثال الأوزاعى وابن المبارك والثورى ما أضافت من كلمات قاسية فى حق غيرهم من الأئمة ، ونربأ بهم — وهم من هم — أن تصح نسبة تلك الكلمات إليهم . . .

وإذا كنا نلمح فى صفحات الماضى أو الحاضر مواقف تند عن القصد ، أو تشذ عن الاعتدال والتسامح ، فالتفسير القريب لهذه المواقف هو أن أغلب العصبيات المذهبية تختفى من ورائها وتحركها منازع قيصرية ، أو أهواء شخصية ، أو منافع مادية ، أو تضليلات فكرية ؛ والدين فى أغلب الأحيان — إن لم يكن فى جميعها — هو الضحية ، يرغمه الجبارون أو المحرفون على كلمة التحليل وكلمة التحريم مراراً وتباعاً ، وأحياناً فى الموضوع الواحد .

ومهما يكن من أمر التعليل والتشخيص ، فالإجماع منعقد على وجود الداء

وتطلب الدواء ، إذ لا عزة للمسلمين بعقيدتهم إلا إذا تلاقوا تحت لوائها الواحد إخوةً متحابين متكاتفين ، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . . . وإنما يتعدد الرأى فى اختيار العلاج .

وعندى أن أمر التعصب والتسامح أجل وأخطر من أن تكفيه الدعوة المخلصة ، أو الكلمة الطيبة ، أو اللقاء العارض .

وعلى الرغم مما للمؤتمرات العامة والاتصالات العاجلة واللمحات العابرة من فائدة محدودة ، أرى أن محاربة التعصب تحتاج إلى منهج مرسوم ، وخطة للتطبيق ، وكتيبة صالحة للتنفيذ ، وتلاق على الفكرة من هنا وهناك ، ومن الرعاة والرعايا ، وتعاون على تحقيقها من الأزهر ، والنجف ، والأموى ، والزيتونة ، وبقية الجامعات والمعاهد الدينية الكبرى فى العالم الإسلامى . فالأمر أمر المسلمين جميعاً ، لا أمر قطر من أقطارهم .

وتحتاج محاربة التعصب أولا إلى تبيان مضاره وأخطاره ، وإيضاح مزايا التسامح وآثاره ، وتحتاج إلى غربلة التراث الدينى لننفى عنه الدخيل والخبيث ، وتحتاج إلى استقاء تعاليم الملة وما اتصل بها من منابع صافية ومناهل طاهرة ، لم تدنسها أيدى التحريف أو التخريف ، وتحتاج فوق هذا إلى إحكام الصلة فى دراسة الإسلام بالكتاب وصحيح السنة . وإلى تربية حسن التفهم للأصول والنصوص ، والتعود على قواعد الحوار وأصول النقاش ، وإجادة الاستماع وبخاصة استماع الرأى المخالف ، وإجادة الحديث والكلام والإسماع ، وسعة الأفق الفكرى حتى

لا يحكم الباحث على أمر من زاوية واحدة ، بل يصـــبر حتى يبحث فى جميع الزوايا . . .

وتحتاج أولا وقبل كل شىء إلى أن يراد بها وجه الله ، لا ذهب المعز ولا رضا قيصر » ! ...

* * *

ويحتاج إصلاح حال المسلمين فى المجال الدينى إلى وجوب العناية بتنشئة الشباب على التدين والاعتصام بالعقيدة ، لأن الشاب يخرج الآن إلى حياة تطغى فيها المادة على الروح ، فإذا لم يتدرع الشاب بدرع التدين والاعتزاز بالقيم الروحية والمثل الأخلاقية لم يصلح لمقاومة الشهوات والمغريات فى هذه الحياة ، وليست هذه كلمة يقولها واعظ دينى من فوق منبره فى المسجد فقط ، بل إن المفكرين المدنيين والمثقفين العصريين يدركون تأثير التدين فى عصمة الإنسان من الأهواء والأخطاء ، فهذا مثلا هو الدكتور أحمد محمد كمال يقول فى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٩ من مجلة «الدكتور» :

« إن الدين قوة لا يستهان بها فى تربية النشء ، ومع الأسف الشديد أهمل هذه الأيام إهمالا شنيعاً . أنا لا أقصد أن يكبر الطفل ليصير عالماً دينياً أو متصوفاً ، ولكن كل ما أقصده أن يعلم المرء . وهو مازال فى حجر أمه ، من أصول الدين مايردعه ، وما يقوم خلقه ، ومايكبح جماحه إذا غوى ، ويشذب من شذوذه إذا انحرف أو التوى » .

ويتحدث الدكتور إبراهيم مدكور فى السنة الثالثة من مجلة رســالة الإسلام عن « حاجتنا إلى تربية روحية » والتربيــة الروحية هى التربية الدينية ، وبعد أن يعدد مظاهر المـادية فى مجتمعنا يقول : « وفى الواقع

إن العالم تجتاحه موجة مادية جامحة ، وتكاد تطغى فيه فكرة الكم على فكرة الكيف . وكأنما يراد بالحياة كلها أن تصبح ضرباً من الآلية التى لاتدع مجالا يذكر للتدبر والاعتبار ، والطابع الحضارى الذى نجدّ فى محاكاته ونتسابق عليه ، معنى كل العناية بمظاهر الحس واللمس ، إن فى المأكل والمشرب ، أو الملبس والمسكن » .

وبعد أن يعدد مظاهر هذا يقول : « هذا هو الموقف فى خطوطه الرئيسية ، ويبدو منها فى وضوح أن الجانب الروحى من الإنسان أضحى فى حاجة ماسة إلى تعهد وغذاء ، وأخشى ما أخشاه ، أنه لايحظى من القادة والمصلحين بما هو أهل له من عناية » .

والواجب علينا فى تربية الناشئة على التدين أن تكون هذه التربية عاقلة بصيرة ، تعتمد على إحياء العاطفة وإقناع العقل ، وعلى بعث الحياة الحارة النابضة فى الوجدان الدينى ، مع عدم إغفال الناحيـــة الفكرية المؤيدة بالدليل والبرهان ، لأن الذين درسوا الدين على بصيرة يدركون أن التدين منبعه القلب الزكى الطهور ، يسنده من ورائه العقل الناضج المستقيم ؛ وما أشبه التدين الصحيح بحكومة مستورة غير محدودة السلطان على الإنسان : تنبعث سلطتها من أعماق نفس الإنسان ، ومن جذور عواطفه ، ومن لجة مشاعره ؛ ثم يستخدم المؤمن السليم عقله مع هذا ، فيتلمس الأسباب والأغراض والحكم ، فإذا اهتدى عقله إلى الإدراك — وكثيراً ما يكون — رضى وشكر ، وإذا علا أمامه المرتقى ، أو امتد به الطريق ، تذكر حدوده ونقصه ثم صبر . . .

والمرء حينما يتدين لا يدخل عالم المـــادة المحشود بحسياته وذواته

وأجرامه ، وإنما يدخل عالم الروح ، ويؤمن بالغيب ، ولذلك يبدأ دين المسلم من الإيمان بالله جل جلاله الذى « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . . . ثم يتطلع المسلم إلى هذا الكون العريض ليأخذ عنه مؤيدات هذا الإيمان ، ومؤكدات هذا اليقين ، وليرى فى كل شىء آية تدل على الله الواحد الأحد ، فهو يتطلع إلى هذه الطبيعة على أنها صنعة الله الكبرى ، ومظهر عظمته الواسعة ، ومن هنا جاء فى القرآن الكريم : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون » . وجاء فيه أيضاً : « وفى الأرض آيات للموقنين » .

ثم يفىء المسلم إلى قلبه ، لأنه مرآة الإيمان ، ومعقد الشعور بجلال الخالق ، ومما يروى فى الآثار القدسية : « ماوسعتنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » . وقلب المؤمن ليس شيئاً قليلا ، وليس أمراً ضئيلا ولا كوناً صغيراً ، بل ينطوى فيه العالم الأكبر ، ومما يلفت إلى هذه القيمة العالية لقلب الإنسان قول القرآن : « وفى أنفُسِكم أفلا تُبْصِرونَ » ؟ .

إن فى الدين مجالا واسعاً رحيباً للقلب وعاطفته ، لأن القلب هو الذى يتأثر ويتذكر ويعتبر : « إنَّ فِى ذلكَ لذِكْرى لِمنْ كانَ له قلبٌ أو ألقَى السَّمعَ وهو شهيدٌ » . ولكن هذا القلب الشاعر المؤمن محتاج إلى سناد من العقل ، ودعامة من التفكير ؛ ومن هنا رأينا القرآن الكريم يخاطب القلوب والمشاعر تارات ليحييها ويوجهها نحو نوره ، ويخاطب العقول تارات لتكون عوناً وسنداً لهذه القلوب ، فتلتمس العقول من حولها ومن آيات ربها دلائل وشواهد تزكى بها عواطف هذه القلوب ،

وتؤيد بها مشاعرها ؛ وإذا اجتمع العقل السليم مع القلب القويم اكتمل للإيمان فى نفس الإنسان عنصر العاطفة وعنصر الفكرة ؛ وإذا شعر المرء بعاطفة ، وأيد عقله هذه العاطفة ، كان المرء عند ذلك من خير الجنود لتلك العاطفة ، وكتاب الله المجيد يوجهنا تلك الوجهة ، فيدعونا إلى تلمس دواعى الحق فى النفس بإحياء القلب ، وفى الآفاق باستعمال العقل ، فيقول: « سَنُرِيهِم آياتنا فى الآفاقِ ، وفى أنفُسِهِم ، حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ أولم يَكْفِ بربِّك أنه على كل شىء شهيد » !.

وهذا الأسلوب لتربية الدين فى نفوس الناشئة وعقولهم هو الأسلوب الذى يجب أن نتبعه فى مدارسنا الإسلامية ، ونستطيع أن نقول إنه لم يصبح حتى اليوم أسلوبا شائعاً عاما فى هذه المدارس الكثيرة .

الفصل الرابع

رجل الدين

إن التربية الدينية الصحيحة اللازمة لأبناء الأمة الإسلامية تحتاج إلى رجل الدين الصالح لها ، ونحن نقصد بقولنا « رجل الدين » المعلم الذى يستطيع أن يغرس تعاليم الدين ومبادئه فى النفوس ، لأن الإسلام لا يعرف معنى لرجل الدين غير هذا . ومن المؤسف أن نقرر أن الأمة الإسلامية محتاجة إلى العدد الكافى من رجال الدين البصراء الأذكياء الذين يستطيعون النهوض بهذه المهمة ، لأننا لا نريد هنا حفاظ نصوص ، ولا قادرين على ذكر الأحكام وتفصيل الحلال والحرام فقط ، بل نريد مربين ومهذبين ومرشدين يؤثرون تأثيراً واضحاً فى النفوس والعقول ، فيهدون ويصلحون .

نريد رجل الدين التقى البصير المثقف ، المتابع للجديد فى العلم والفكر ومشكلات الحياة ، المتصل بالمجتمع المتفاعل معه ، الخبير بشئون الناس أفراداً وجماعات ، ويجب أن نتمعن جيداً هنا فى كلمة فولتير : « إن رجل الدين الغبي الجاهل يثير احتقارنا ، ورجل الدين الشرير الردىء يثير الجزع فى نفوسنا ، أما رجل الدين الناضج المتسامح البعيد عن الخرافات ، فهو الجدير بحبنا واحترامنا » .

وأهم ما يتطلبه العالم الإسلامى الراغب فى النهضة والتقدم من رجل

الدين هو أن يحسن وصل الدين بالحياة ، فما جاء الدين ليكون أقوالا مستورة ، أو تعاليم مطمورة ، أو أدعية مبتورة الصلة بالحياة ، بل جاء لينظم هذه الحياة ويعمرها ، فيجب على رجل الدين أول مايجب أن يتقن ربط التعاليم الدينية بالمجالات الحيوية ليكون لها آثارها وثمارها .

* * *

لقد كان من نتيجة الكشوف الإنسانية الهائلة فى ميادين العلم والفن والاقتصاد والاختراع والطبيعة ، أن اغتر الإنسان بنفسه اغترارا كبيراً ، فخيل إليه أنه قادر على كل شىء ، أو أنه كتعبير بعضهم « نصف إله » فى هذا الكون — تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا — ولذلك تعرضت قضية الأديان فى العصر الحاضر لامتحان شديد واختبار عصيب ، حتى ظن الكثيرون أن هذه الوثبة العلمية الكبرى قد زلزلت قواعد القضية الدينية ، وهزت أركانها هزاً عنيفاً .

وكان من نتيجة ذلك أن رأينا الملايين تعترف بالدين فى قولها ، وتنتسب إليه فى ظاهرها ، وتستغله عند حاجتها ، ولكنها فى الوقت نفسه لاتنزل على أمره ، ولاتتقيد بحكمه ، ولاتخلص فى تنفيذه ، وما ذلك إلا لقلة ثقتها به ، وضعف إيمانها اليقينى بوجوب الخضوع له ؛ وتلك مشكلة من حق رجال الدين إن لم يكن من واجبهم أن يلتفتوا إليها ، ويعكفوا عليها ، ويطبوا لها ، قبل أن يستفحل فيها الداء ويعز الدواء . . .

أتكون الأديان من صنع الخيال أو الرجال ؟ هذا غير ممكن ، لأنه لا يعقل أن تظل البشرية هذه الآلاف المتطاولة من السنين ترجع إلى الدين وتقدسه ، وفيها أفذاذ وعباقرة ومفكرون ، على حين أن الدين ليس من السماء . . .

أيكون رجال الدين قد عجزوا عن تبيين الحلال والحرام ، فحالوا بين الناس وبين الدين ؟ . هذا بعيد أيضاً ، فالحلال بيّن والحرام بيّن ، وأصول الدين معلومة للجماعة الإنسانية بالضرورة . . .

أتكون النفوس البشرية كلها قد فسدت وعميت ، فأصبحت غير صالحة لتلقي هدى السماء كما كانت تتلقاه ؟ . . ذلك أيضاً بعيد ، إذ من العسير أن نسلم بأن هذه المجموعة الهائلة العدد التي وهبت لها العقولُ والقلوب القُدَرَ العجيبة ، قد غُطيت أفهامها ومشاعرها بحجب صفيقة من التبلد والعمى والضلال . . .

إذن فما السبب في سوء مصير القضية الدينية في هذا العصر ؟ . وما السر في انصراف الناس أو أغلبهم عن الدين انصرافاً يثير الريب والشكوك ؟ . . . السر فيما يخيل إلىّ — وفوق كل ذى علم عليم — هو أن القائمين بأمر هذا الدين قد قطعوا الصلة بينه وبين الحياة المتجددة باستمرار ، فقبع رجل الدين في معابده وصوامعه وبيعه ، يتأمل ويتعبد ، ويجتر ما عنده من غذاء موروث محدود ، بينما انطلق موكب الحياة العجلان في رحاب الكون ، يغذ السير ، ولا يعرف التلبث أو التمهل ، واتسعت مسافة الخلف بين رجل الدين ورجل الحياة . . .

ورأى رجل الحياة في دنياه من لذائذها وجواذبها ما جعله يصم أذنيه عن نداء رجل الدين الذى يأتيه من الوراء . ولو أن رجل الدين في هذه الآماد التي اكتشف فيها الناس ما اكتشفوا من أسرار الطبيعة ، واستحدثوا فيها ما استحدثوا من وسائل الحياة ومناعم العيش ولذات الدنيا وأعاجيب الافتتان . . . لو أن رجل الدين خرج أثناء ذلك من

عزلته ، وألقى بدلوه بين الدلاء ، وعرض نفسه للهب الحياة وأتون المجتمع فتأثر به وأثر فيه ، وحاول أن يوجد صلة كريمة قويمة سليمة بين رسالته الدينية ودنيا الناس ، لاستفاد الدين ، واستفاد الناس ، واستفاد رجل الدين نفسه .

ونحن لا ندعو رجل الدين بتلك الصيحة إلى تحريف أو تبديد ، أو شراء الدنيا بالدين ، وإنما نريد منه أن يقدم ميراثه الروحى إلى الناس فى صورته النبيلة الأصيلة ، وإن من له أدنى بصر بالشئون الدينية ليدرى أن الدين أصول عامة مرنة طيّعة ، راعى المشرع الحكيم فيها أن تصلح لكل زمان ومكان ، وأن لا تصادم الطبع أو كريم العرف والعادة ، وأن تراعى حق الضرورات والمعاذير ، وأن تقدم اليسر على العسر ، والتبشير على الإنذار والتحذير ، وهذه الأصول العامة لو أحسنّا دراستها وفهمها وعرضها ، لما تعذر علينا أن نوثق روابطها بالحياة والأحياء .

كذلك يجب على رجل الدين أن يتذكر قاعدة لها جلالها وخطرها ، وهى أن الحياة لها تطورها وتجددها وميلادها المتكرر ، ومن لم يستجب لتلك التطورات : بالأخذ الكريم منها ، والتفاعل القويم معها ، والتأثير المعقول فيها ، فإنه يدع الحياة الحية فى واد ، ويهيم هو فى واد آخر من التخلف والجمود والحرمان . .

وهذه القاعدة تستدعى من رجل الدين دراسة مستمرة عميقة لمشكلات المجتمع التى تظهر من حين لحين ، وحبذا لو كانت هذه الدراسة بمجرد ظهور تلك المشكلة قبل أن تستفحل وتتعقد ، ويصعب علينا ـ بعد

شيوعها وسيطرتها وتعدد شعابها — أن نخضع سيرها لأصول العقيدة أو رأى الدين . . .

ولسنا نرتضى أبداً فى حل المشكلات والتغلب عليها والتوفيق بينها وبين الدين أن يكون ذلك على حساب الدين ، فإن الدين هو العماد والأساس ، وإلا انقلبنا جناة على العقيدة وعلى أنفسنا . . . بل نريد التوفيق الحكيم السديد المقنع بدلائله وشواهده ، المخضع ببراعته وجواذبه ، وذلك ميدان واسع فسيح ، تظهر فيه همم عمالقة ، وتبدو عورات أقوام لايصلحون لقيادة أقوام . . .

ولكى يتحقق لنا وصل الحياة بالدين وصلا سليما قوياً ، لا بد لنا من أن نطلع الناس بالأساليب الرائعة المؤثرة على الجوانب الكريمة السمحة الموجودة فى الدين ، والتى تفيض بتحبيب الناس فى السهولة واليسر والتمتع بطيبات الحياة ، والإقبال على الدنيا إقبال الأصحاء القادرين ، وعدم العجز أمامها أو الفرار منها فرار العجزة المعلولين .

وتلك ناحية هامة كل الأهمية ، لأن الدين لا يريد الناس فقراء أذلاء عاجزين محرومين قابعين فى ظلمة القيود المرهقة والحدود المفتعلة ، بل يريدهم أغنياء شاكرين قادرين متمتعين ، منطلقين فى مناكب الأرض ، آكلين من رزق الله ، عاملين للحياة كأنهم يعيشون أبداً ، ولا يمنعهم ذلك من أن يعملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غداً .

ويوم يعرف العامة من الدين هذه السماحة وذلك الانطلاق سيقبلون عليه لينعموا به ، ما دام لايحرمهم طيبات الحياة ، وحسبنا فى هذا المقام

كلمة حكيمة رشيدة للسيدة عائشة تقول فيها : « ما تمتع الأشرار بشيء إلا تمتع به الأخيار ، وزادوا عليه رضا الله » ! . . .

ولا بد مع المجاهرة بما فى الدين من سماحة ونبالة ويسر ، من الصدع بكلمة الحق فى أمور لا يرتضيها الدين بحال من الأحوال ، وهذه الأمور تسيء إلى الفرد أو الجماعة ، أو تشيع بين الناس ألواناً من المآثم أو المظالم أو الانحراف . وهنا يظهر واجب الرءوس الكبيرة فى البيئات الدينية واضحاً جلياً ، فهم بحكم مكانتهم ومنزلتهم وتبعاتهم مطالبون بأن يؤثروا الدين على الدنيا ، وأن يراقبوا الخالق لا المخلوق ، وأن يكونوا مثلا عليا تحتذى فتشيع فى صدور من خلفهم الثقة والإعجاب ، وذلك عمل إن أخلص فيه أصحابه ، وأرادوا به وجه الله ، أفاء على أهليه وعلى الناس ما لا يحد من الطيبات والثمرات .

ولكى تتم هذه الإصلاحات نرى من اللازم أن نخرج قليلا أو كثيراً على العرف المألوف ، وهو تكوين اللجان والهيئات الدينية ممن عرفوا بالرجعية والجمود والرضى بالواقع . فإن ذلك التكوين يوقع فى أخطاء نلمس بعضها وينطوى عن أبصارنا أكثرها . فلا بد من تطعيم تلك الهيئات بعناصر بصيرة منطلقة قادرة على البحث والدراسة والمقارنة والتفهم والإنتاج والعرض ، وغير ذلك من الصفات التى يجب توافرها فى رجل الدين الذى يساير الحياة ، ويستطيع أن يجذب الناس إلى رحاب الدين . . .

نحن نريد من رجل الدين أن يكون إيجابياً مؤثراً ، يحسن الجمع بين الدين والدنيا ، ولا يحاول إرهاق الناس بإلباس كل شأن من شئون

دنياهم ثوباً دينياً مأخوذاً من نص أو حكم، لأن هذا خطأ بيّن، فالرسول صلوات الله عليه يقول: « أنتم أعلم بشئون دنياكم »، وهذا النص النبوى يتيح للأمة الإسلامية مجالا واسعاً تتصرف فيه دنيوياً حسب ما تقتضيه مصالح الدنيا ومطالب الحياة، ما دام ذلك لا يصادم قاعدة من قواعد الدين، ولا أصلا من أصوله.

وفى ظلال هذا الحديث النبوى أيضاً تستطيع الأمة الإسلامية أن تصطنع أو تأخذ عن غيرها من وسائل المدنية الصحيحة والحضارة القويمة والرقى بمستوى الحياة المادى كل ما تستطيع: « فأمّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاءً، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكُثُ فى الأرضِ، كذلكَ يضْرِبُ اللهُ الأمثالَ ». وفى ظلال هذا الحديث أيضاً تستطيع الأمة أن تنتقل فى حياتها المادية من طور إلى طور، وأن تتقبل الجديد النافع ما دامت محتفظة بشخصيتها وعقيدتها وأخلاقها وقيمها الروحية.

ولقد يطول الخلاف أو يشتد حول المدنيات والحضارات، ومدى صلتها بالدين، ولكن المسلَّم به أن المسلمين لهم حضارة ومدنية، وأعداء الإسلام الذين تحاملوا عليه لم يستطيعوا أن ينكروا أن الإسلام فى تاريخه الطويل له مدنية، وإن بخسوا هذه المدنية بعض حقوقها.

وإذا كان هناك من يقول إن مدنية الإسلام قد استفادت من غيرها، أو نقلت عن سواها، فليس هذا بضائر الإسلام ولا بعائب المسلمين، لأن المدنيات قسط مشترك بين البشر وأبناء الإنسانية؛ تتأثر المدنية فى الشرق بما يكون فى الغرب، وتتأثر المدنية فى الغرب بما يكون فى الشرق . . . وهكذا . .

ومن وسائل تقدم المسلمين أن يعنوا ببث روح الحضارة فيهم عن تعقل وتبصر ، فدينهم لا يمنعهم إطلاقاً من تحصين حياتهم بأسباب هذه الحضارة ، ما دامت لا تخرج إلى إسراف معيب ، أو ترف مهلك ، أو فساد فى الأرض . والرسول يقول : « الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها » .

ونريد من رجل الدين أن يعلم الناس أن المسلم تعلو مكانته إذا كان متديناً ومتقناً لأسباب حياته وناجحاً فى دنياه ، ولقد قال مروان ابن أبى حفصة لعمارة بن حمزة : أنشدت المأمون قولى :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا ... بالدين ، والناس بالدنيا مشاغيل

فلم يهتم بذلك . فقال عمارة : ما زدتَ على أن صيَّرته عجوزاً معتكفة فى محرابها ، فمَنْ لأمور المسلمين ؟ هلا قلت كما قال جرير :

فلا هو فى الدنيا مُضيعٌ نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله !!

ومن شواهد حسن الجمع بين الدين والدنيا ، ويقرب من مغزى الشاهد السابق ، ما يشير إليه ابن تيمية حين يقول : « وقد كانت السنة أن الذى يصلى بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم هم أمراء الحرب الذين هم نواب ذى السلطان على الجند ، ولهذا لما قدَّم النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر فى الصلاة قدَّمه المسلمون فى إمارة الحرب وغيرها ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على حرب كان هو الذى يؤمره للصلاة بأصحابه . وكذلك إذا استعمل رجلا نائباً على مدينة » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضاً يقول : « اللهم

اشف عبدك يشهد لك صلاة ، وينكا (يوهن) لك عدواً ، فانظر إلى هذا الجمع بين الصلاة وهى عبادة ، وبين القتال وهو عمل حسى ! ! . . .

ولقد دعا أعرابى عند الكعبة فكان بليغاً حين قال : « اللهم إنه لا شرف إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، فأعطنى ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة » . .

* * *

وهناك أمر له قيمته وأهميته ، وهو أن كل عمل من أعمال الحياة الطيبة اللازمة لصلاحها وإصلاحها وتعميرها وتقويتها ، ينظر إليه الإسلام على أنه لون من ألوان العبادة التى يرتضيها الله تعالى .

وإن معنى العبادة فى الإسلام يتسع ويتسع حتى يشمل كل عمل كريم يدعو إليه قصد نبيل فى هذه الحياة ، وما جاء هذا الدين إلا ليكون قائد تلك الحياة ، ولا يمكن أن ينتظم للقيادة أمر إلا إذا توثقت الرابطة بين القائد والمقود .

وكل عمل من أعمال الدنيا والآخرة يعمله المسلم بنية صالحة أو غرض طهور يكون عبادة ، فالصلاة عبادة ، وذكر الله بطريقته المثلى عبادة ، والكلمة الطيبة تقولها لتنفع بها غيرك عبادة ، وإماطة الأذى عن طريق المارة عبادة ، والسعى على قوت عيالك أو ملاعبة أهلك عبادة ، والراحة لتجديد القوة والاستعانة على العمل عبادة ، والعمل لرفعة الأوطان وتخليصها مما يفسدها أو يبعدها عن حمى ربها عبادة .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم الدين من جديد فهماً حقيقياً دقيقاً ، تزول معه الصورة الرهيبة المخيفة التى يتخيلها بعض الناس عن

الدين وشدته ، وعدم استطاعتنا القيام بتكاليفه ، إلى غير ذلك من الخيالات والأوهام !.

وليت شعرى . . . إذا كان المقصود من العبادة فى الدين ما قالوه ، (وهو الاقتصار على الشعائر الدينية كالصلاة والصوم والذكر والدعاء) فمن للكون إذن يعمره ويقيم دعائمه ؟ ومن للحياة يقبل عليها ويستجيب لها ، ويظهر آيات الله فى إبداعها ؟ ومن لواجبات المجتمع يؤديها ؟ وكيف تكون هناك أمة تعبد ربها ، وتنهض بتبعات خلافتها عنه فى هذه الأرض الواسعة ؟ .

* * *

ونريد من رجل الدين ألا يكون داعية من دعاة الانطواء أو الهزيمة أو الضعف ، بل يكون داعياً لكل لون من ألوان القوة فى هذه الحياة : قوة الحس ، وقوة النفس ، وقوة الروح ، وقوة الخلق ، وقوة المال ، وقوة العلم ، وقوة الأدب . . .

إن الإسلام دين هذه الألوان كلها من القوة ، وكل موطن كريم من مواطن القوة يؤيده الإسلام ويزكيه ؛ وأذكر أنى وقفت فى « مؤتمر الشعوب الإسلامية » الذى انعقد فى كراتشى فى مايو سنه ١٩٥٢ وأطلت الحديث عن هذه الناحية ، وقلت فيما قلت : إن المحنة الكبرى أن يفترى مفترون فيزعمون أن الصبغة الدينية تؤدى إلى حياة الركود والجمود ، والضعف والاستسلام ، ويعممون حكمهم هذا على كل الأديان ، وذلك بهتان على الإسلام وإفك مبين .

نعم إن الإسلام دين السلام والاستسلام . . . ولكنه دين السلام

الذى ينطوى على العدل والقسطاس والرأفة ، ودين الاستسلام للخالق وحده البارئ المصور ، ذى الجلال والإكرام .

وهو مع هذا دين العزة : « ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يَعْلَمون» وهو دين السيادة والإباء للضيم : « ولا تهنوا ولا تحزَنوا وأنتم الأعلَوْنَ إن كنتم مؤمنين » وهو دين القوة التى لاتطغى والشدة التى لاتبغى ؛ ولعل القرآن الكريم — وهو دستور البشرية الأعلى — قد أراد أن يبسط هذا المعنى فى أسماع الناس وعقولهم ، وأن يؤكده فى قلوبهم وأرواحهم حينما احتفل فى حديثه عن « القوة » هذا الاحتفال العجيب .

إن القرآن يحدثنا عن صفات الله ذى الطول والإنعام ، فيذكر لنا من هذه الصفات صفة القوة ، وفى وصف الله بالقوة أكثر من مرة إيحاء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء ، لأنهم يلجئون إلى حصن منيع وعرش رفيع ، فلهم من ذلك قوة ، ولهم فى ذلك أسوة . يقول القرآن المجيد : «إنَّ اللهَ هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتينُ » ، « إن ربَّك هو القويُّ العزيز » ، « وَهُمْ يُجادِلونَ فى اللهِ وهو شديدُ المِحَالِ » ، « والله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلا» ، « وَلينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُره إن الله لقوىٌّ عزيز » ، «كَتَبَ اللهُ لأغلِبنَّ أنا وَرُسُلى ، إن الله لقوىٌّ عزيزٌ » .

والقرآن الكريم يحدثنا عن جبريل عليه السلام ، وهو أحد ملائكته، وسفيره إلى أنبيائه ورسله ، وأمينه على وحيه ، فيصفه بالقوة أيضاً ، مع أن طبيعة الملائكة النورانية ، ومجاليها الصافية المباركة قد لايناسبها — فى الظاهر — هذا الوصف ، فيقول عنه : « إنه لقَوْلُ رسولٍ كريم ،

ذى قوةٍ عند ذىالعرش مَكين » ، ويقول : «إن هو إلا وحىٌ يُوحَى ، علَّمهُ شديدُ القُوَى ، ذو مِرَّةٍ فاستوى » .

والقرآن يحدثنا عن الرسل ، وهم المعصومون المؤيدون بنصر الله وهدايته ، الذين تتنزل عليهم جنود السماء ، فتقودهم من نصر إلى نصر ، فتراه يصفهم بالقوة، وشدة البأس ، وبسطة الجسم ، وتوافر الثبات ، فهو يقول عن نبي الله طالوت: « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بَسطةً فى العلم والجسم » ، ويتحدث عن يوسف فيرمز إلى أنه لم يؤت الحكم والعلم إلا بعد أن اشتد ســاعده وقوى ، يقول : « ولما بلغ أشُدَّه آتيناه حُكْمًا وعلماً وكذلك نجْزى المحسنين» ويقول عن موسى مايشبه هذا : « ولما بلغ أشُدَّه واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين » . ويقول عن داود ممتناً عليه بنعمة القوة فى الملك: « وَشَدَدْنَا مُلكَهُ وآتيناه الحكمةَ وَفصْلَ الخطابِ » .

وهذا موسى يدرك ما فى القوة والتعاون بها من خير وسبب للوصول فيقول لربه : « واجعلْ لى وزيراً مِن أهلى ، هارونَ أخى ، اشْدُدْ بهِ أزرى » ، وهذا لوط يترجم عن قيمة القوة ومنفعتها وهو فى موقف من أشد المواقف على نفوس الرجال الأحرار ، فيقول مخاطباً الملائكة الذين جاءوه : « لو أنَّ لى بكم قوةً أو آوِى إلى رُكْنٍ شَديد »

والقرآن يصف رسول الإسلام ، ويصف أمته ، فينعتهم بالقوة : « محمَّد رسولُ الله والذين معه أشِدَّاء على الكُفَّارِ رُحماء بينهُمْ » .

والقرآن يتحدث عن « ذى القرنين » فى إصلاحه ، فيجعل القوة من أسباب نجاحه : « قال ما مكَّنِّى فيه ربِّى خيرٌ ، فأعينونى بقُوَّةٍ

أَجعَلْ بينكم وبينهم رَدْمًا »، ويتحدث عن « عفريت سليمان » الذى أراد أن يحضر له عرش بلقيس ، فيجعل من أسباب ثقته بفعل ذلك قوته : « قال عِفريتٌ من الجن أنا آتيك به قبْلَ أن تقومَ من مَقامِك وإنى عليه لقوىٌّ أمين » .

وهذه بنت شعيب عليه السلام تجعل قوة موسى مسوغا ومحرضاً على الاستعانة به : « قالت إحداهما : يا أَبتِ استأْجِرْهُ إن خيرَ مَن استأجرتَ القوىُّ الأمين » .

والله يتحدث عن القوة فى ملكه وخلقه على أنها مظهر من مظاهر الفضل والنعمة فيقول : « نحن خلقناهم وشَددْنا أَسْرهمْ » ويقول : « وبنينا فوقكم سَبْعاً شِداداً »، ويقول : « ويَزِدْكم قوةً إلى قوتكم » ويقول : « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » ويقول — وما أروع الإشارة إلى الانتفاع بالقوة فيما يقول — : « وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاس » .

ويأمر الله سبحانه بالقوة حتى فى العبادة وتنفيذ الأوامر واختيار مايحتاج إلى الجد ، فيقول : « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتَّقون» ويقول : «إنَّ ناشئةَ الليل هى أشدُّ وطْأً وأقومُ قِيلا »

ثم يجمل القرآن الأمر بألوان القوة المختلفة فى عبارة موجزة فيقول: « وأعدُّوا لهم مااستطعتم مِن قوَّة ومِنْ رِباطِ الخيل »[1]

(١) قال المفسرون : هذا عام فى كل ما يتقوى به ، وكل آلة للجهاد ووسيلة للدفاع وسبب للصيانة تعد من جملة القوة .

ثم يقول الرسول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ويتحدث ابن تيمية عن اختيار الأمثل فالأمثل فى الولايات فيقول : « وينبغى أن يعرف الأصلح فى كل منصب ، فإن الولاية لها ركنان : القوة والأمانة ، كما قال تعالى: (إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين)

وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام : (إنكَ اليومَ لدينا مكينٌ أمين) وقال تعالى فى صفة جبريل : (إنه لقولُ رسولٍ كريم ، ذى قوةٍ عند ذى العرشِ مكين ، مُطَاع ثَمَّ أمين) .

والقوة فى كل ولاية بحسبها ، فالقوة فى إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال : من رمى وطعن وضرب ، وركوب وكر وفر ، ونحو ذلك ، كما قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : (ارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا) وفى رواية (فهى نعمة جحدها) رواه مسلم .

والقوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام » .

ثم يتحدث ابن تيمية عن قلة اجتماع الأمانة والقوة فى الناس ، ويقرر أنه يجب أن نقدم القوى للولاية على الأمين إذا كانت الولاية تنفعها القوة ، فيقول : « اجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل ، ولذلك كان

عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة » فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها ، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم قوة ، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضرراً فيها ، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً .

كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو ، وأحدهما قوى فاجر ، والآخر صالح عفيف ، مع أيهما يغزى ؟

فقال : أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه : وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوى الفاجر ؛ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) وروى : (بأقوام لاخلاق لهم) ، فإذا لم يكن فاجراً كان أولى بإمارة الحرب من هو أصلح منه فى الدين إذا سد مسده » .

* * *

ونريد من رجل الدين ـ ليعز شأن المسلمين ـ أن يحببهم فى الدنيا ، وأن يغريهم بالإقبال عليها أصحاء أقوياء ، ونحن لا نريد من حب الدنيا معنى الهيام بها لذاتها ، أو معنى الإسراف فيها والاقتصار على ملذاتها . بل نريد الحب بمعنى الإقبال المستقيم ، والكسب السليم ، والتمتع القويم ، مع أداء الواجبات والحقوق ؛ وإذا كانت هنالك نصوص دينية تنفِّر من الدنيا فإن المراد بها فى الغالب هو محاربة الجشع والترف والإسراف . . .

يجب ألا يكون المسلمون ممن يعرضون عن الدنيا ويفرون منها ، ولا ممن يقتصرون عليها ويذلون لها ؛ فهناك من ينظر إلى الدنيا نظرة العداء

والاحتقار باسم الدين ، والدين الحق من ذلك براء ، وهناك من يتكالب على الدنيا فى إسراف وإفراط ، ليتخذها سبباً للاغتراف من الشهوات والملذات بلا حساب .

والإسلام يدعو إلى التمتع بالحياة ، والأخذ من طيبات الرزق ، والانتفاع بالدنيا ، وتعمير الكون بالعمل والإنتاج . والنصوص التى تذم الدنيا يراد بها التحذير من التكالب عليها مع عدم القيام بالواجب ؛ وليس هناك فى الإسلام تبتل أو انقطاع عن الحياة ، كما أنه ليس فى الإسلام كنز أو إسراف أو شهوة خرقاء ، بل يدعونا الإسلام إلى روحية مادية ، أو مادية روحية ، والرسول يقول : « ليس فى دينى ترك النساء واللحم ، ولا اتخاذ الصوامع » .

وإذا كان هناك مسرف فى المادية يقول : « إن مملكتى ليست إلا هذا العالم » ، ومسرف فى الإعراض عن المادية يقول : « ليس هذا العالم مملكتى » فإن المسلمين الأصحاء يؤمنون بأن هذا العالم هو مملكتهم الحاضرة ، وأن لهم من وراء هذه المملكة مملكة أخرى أبقى وأعلى : « وإن الدارَ الآخرةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يعلمون » . ولذلك يدعون ربهم قائلين : « ربّنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقِنا عذاب النّار » . ويقول القرآن فى تصوير هذا : « قل مَن حرّم زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؛ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة ، كذلك نفصّل الآياتِ لقومٍ يعلمون » .

وكم أحب أن يتفنن رجل الدين فى توجيه الجموع إلى ميادين الكسب ومجالات العمل والإنتاج ، وأن يكثر تذكيرهم بمعانى أمثال

هذه الآيات الكريمة :

« وأنْ ليس للإنسانِ إلا مَا سَعى » ، « فمَنْ يعملْ مِثقالَ ذرَّةٍ خيراً يره ُ ، ومَن يَعملْ مثقالَ ذرةٍ شرًّا يرهُ » ، « وقُل اعمَلوا فسيرَى اللهُ عملكُم ورسولُهُ » ، « فإذا قُضيت الصَّلاةُ فانتشروا فى الأرضِ وابتَغُوا مِنْ فضلِ الله » ، « هو الذى جعل لكم الأرضَ ذلولا فامشُوا فى منا كِبها وكُلوا مِن رزقه » ، « هو الذى خَلَقَ لكم ما فى الأرض جميعاً » ، « ربَّنا آتِنَا فى الدُّنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً » ، « ولا تنسَ نصيبكَ مِن الدنيا » ، « وَعدَ اللهُ الذين آمَنوا مِنكم وعَمِلوا الصالحاتِ ليَستخلِفنَّهمْ فى الأرض » ، « قُل من حَرَّمَ زينةَ الله التى أخرجَ لعبادِه والطيباتِ مِن الرزق » ، « إنه لا يَيْأسُ من رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرُون » ... إلخ .

وأن يكثر من تذكيرهم بمعانى أمثال هذه الأحاديث :

« علو الهمة من الإيمان » ، « إن الله تعالى يحب معالى الأمور ، ويكره سفاسفها » ، « ليس منا من أضاع دنياه لآخرته ، وليس منا من أضاع آخرته لدنياه » ، « أصلحوا دنياكم ، واعملوا لآخرتكم » ، « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز » ، « العاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » ، « إن الله يحب المؤمن المحترف » ، « البطالة تقسى القلب » ، « عز المؤمن استغناؤه عن الناس » ، « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، « إن الله لا يحب الفارغ الصحيح ، لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة » ، « أشد الناس حساباً يوم القيامة المكفى

الفـارغ » ، « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمـله لم يبطىء به نسبه » ، « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيـانة فإنها بئس البطانة » ، « لا يكن أحـدكم إمعة ، يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولـكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ».

* * *

نريد من رجل الدين أن يجعل الدين للحياة . . . فإن لم يفعل فليجبنا إذن عن هذا السؤال :

ما فائدة الدين إذا لم يكن للحياة ؟ ! . . .

الفصل الخامس

الناحية الأخلاقية

لقد جاء الإسلام – كما قال أحد أبنائه فى الصدر الأول – ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور أهل الأديان إلى عدل الإسلام ، وهذا يقتضى الإيمان بالله وحده ، والخضوع له وحده ، وحسن الانتفاع والاستغلال لهذه الدنيا بما فيها من طاقات وخيرات،ليزول ما فيها من ضيق ، وليتحقق لها السعة والانفساح ، وزوال الظلم والجور ، وقيام العدالة والمساواة . . .

وإنما يصلح لتحقيق هذه الأمور قوم تخلت نفوسهم عن الأدران والرذائل ، وتحلت بالطهارة والصفاء ، وتدرعت بدروع الإيمان ، وعلو الهمة ، والثبات أمام المطامع والأهواء ، ومراقبة الله،والخضوع لصوت الضمير ، والإحساس الصادق بالأخوة الإنسانية والمساواة البشرية ، والإيمان بأن الناس لا يتفاضلون بالأجناس أو الألوان أو الأموال أو الجاه ، وإنما يتفاضلون بالتقوى ، وهى العمل الصالح والابتعاد عن السوء والمنكر ، والقرآن يقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والرسول يقول : « الناس رجلان : رجل بر تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى » .

ولا يمكن أمة أن يكون لها كيان أو سلطان بدون أخلاق . ولذلك سارت كلمة شوقى : « إنما الأمم الأخلاق » مسير الشمس ، والرسول صلوات الله عليه كأنه أراد أن يحصر رسالته فى تهذيب الأخلاق فقال :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »، ومن جلال الوصف القرآنى للرسول قوله فيه : « وإنك لعلى خلق عظيم »، والأحاديث النبوية الواردة فى شأن الأخلاق كثيرة وفيرة، منها : « البر حسن الخلق »، «خياركم أحاسنكم أخلاقاً »، « وخالق الناس بخلق حسن »، « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ».

ولقد استحوذت التربية الأخلاقية على جوانب فسيحة من عناية القرآن والسنة، وتحقق للصدر الأول من المسلمين مجموعة من الأخلاق المثالية كانوا بها قادة وسادة، وكانوا يحسنون الجمع بين أخلاق القوة والعزيمة، وأخلاق الرحمة والشفقة، حتى وصفهم الواصف بأنهم « رهبان الليل فرسان النهار ».

ولكن المسلمين بعد هذا فقدوا هذه الأخلاق فى عصور التأخر والانحطاط، وما زلنا إلى اليوم نشكو مر الشكوى من ضياع الأخلاق بين الكثيرين، ولذلك الضياع أسباب كثيرة منها كيد الاحتلال الأجنبى، وبطش الفقر المادى، وانعدام القدوة الصالحة، وتفكك رباط الأسرة، وانعدام التربية الدينية، مع ضعف العناية بالتوجيه الأخلاقى والروحى فى مراحل الدراسة ومعاهد التعليم.

والمسلمون محتاجون فى نهضتهم وتقدمهم إلى سيطرة مكارم الأخلاق عليهم، حتى تكون قسطاً مشتركا بين أفراد الأمة، وإن كان احتياجنا إلى الأخلاق يزداد كلما علونا فى طبقات الناس ودرجاتهم، فالعلماء مثلا يحتاجون إلى الأخلاق أكثر من سواهم، لأنهم القدوة والأسوة. والحكام أحوج إلى الأخلاق من غيرهم، لأنهم يملكون سلطات إذا

لم يكن بجانبها أخلاق أساءوا التصرف فيها والاستعمال لها ، وهكذا . . .

ونحتاج لغرس الأخلاق فى نفوس الأفراد إلى البدء بذلك منذ المرحلة الأولى من حياة الفرد ، لأن ما يتعلمه أو يتعوده فى الصغر يكون كالنقش على الحجر ، فهو أقوى وأبقى ، ولا يمكن أن نغرس الأخلاق بإلقاء العظات وتفصيل القول فقط ، ولكن الأهم من ذلك هو ضرب القدوة العملية ممن تحتذى بهم الناشئة فى البيت أو المدرسة أو غيرهما من مواطن الحياة . ونحن نحتاج إلى الأخلاق الإيجابية أكثر من احتياجنا إلى الأخلاق السلبية ، ونقصد بالأخلاق الإيجابية الأخلاق التى تثمر ، ويكون من ورائها فائدة عملية للفرد والجماعة ، فالمسلمون بحاجة مثلا إلى أن يتخلقوا بالشجاعة والإقدام ، والاستهانة بالحياة، والجرأة على مقام الموت الشريف ؛ ومن عجب أن الأمة التى أقامت حياتها وعزتها ودولتها على الشجاعة النادرة المثال ، والجرأة التى شرّق ذكرها وغرّب ، هى الأمة التى شاع فيها أخيراً الحرص على الحياة ، والجبن فى مواطن التضحية ، والخوف من الموت ، مع أن قرآنها يصدع أسماعها بقوله : « قل إنَّ الموتَ الذى تفرُّون منه فإنَّه مُلاقيكُم » ، وقوله : « أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولو كنتُم فى بروجٍ مشَيَّدةٍ » ، وقوله : « فإذا جاءَ أجلُهُمْ لا يستأخِرون ساعةً ولا يستَقدِمون » .

نعم عزت عليهم الحياة ، وصعب أمامهم طريق التضحية ، حتى حق فيهم قول رسولهم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ . قال : بل أنتم يومئذ كثير ،

ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

ويحتاج المسلمون لينهضوا ويتقدموا إلى خُلق البذل ، وليس البذل هنا بذل مال فقط ، بل قد يكون المبذول مالا ، أو علماً ، أو جهداً ، أو دماً . والكواكبى فى « طبائع الاستبداد » قد تحدث عن قيمة البذل وقال إن « المجد لا ينال إلا بنوع من البذل » ثم قال : « وهذا البذل إما بذل مال للنفع العام ، ويسمى مجد الكرم ، وهو أضعف المجد ، أو بذل العلم النافع المفيـــد للجماعة ، ويسمى مجد الفضيلة ، أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار فى سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ، ويسمى مجد النبالة ، وهذا أعلى المجد ، وهو المراد عند الإطلاق ، وهو المجد الذى تتوق إليه النفوس الكبيرة ، وتحن إليه أعناق النبلاء » .

كذلك يحتاج المسلمون لينهضوا ويتقدموا إلى إيجاد خلق « الروح الجماعية » فى نفوس الأفراد ، وهذه الروح الجماعية هدف مقصود بارز فى العبادات والتعاليم الإسلامية ، فالصلاة التى تجمع النـاس فى مناسبات الجماعة والجمعة والعيدين تهدف إلى تحقيق الصبغة الاجتماعية والروح الجماعية بين المسلمين ؛ والصوم الذى يراد منه إحياء عواطف التراحم وحوافز التكافل يهدى أيضاً إلى توطيد الدعائم الاجتماعية ، والزكاة وهى الحق المعلوم الذى يؤخذ من الغنى القادر ، ويعطى للســائل والمحروم والمحتـاج والفقير ، نوع من التكافل الاجتماعى والتعاون الاجتماعى ؛ والحج شعيرة يبدو فيها التجمع الحسى والفكرى والعاطفى بصورة واسعة

قوية ، ولو أحسن المسلمون فقه هذه التعاليم ، وتطبيق هذه العبادات ، والتأثر بمفاهيمها وأهدافها لسادوا وقادوا عن طريق التجمع والتكتل والتوحد، والشعور بالروح الجماعية التى تجعل الفرد لبنة فى بناء عام ، فهو فى خدمة المجموع ، كما أن المجموع يكون فى خدمة الفرد .

ولذلك يجب أن يعنى المسلمون بكسب الثمرات المرادة من فرص الاجتماع التى شرعها الإسلام فى صلاة الجماعة والجمعة والعيدين وموسم الحج ، لأن أكثر المسلمين لا يستفيدون شيئاً يذكر من هذه الاجتماعات ، إذ يؤدونها بأسلوب آلى مجرد من الحياة والحرارة والحماسة وحسن التفهم ؛ وقد يشترك الفرد المسلم فى الجماعة ولا يفكر أن يصافح جاره عقب التسليم من الصلاة ، أو يسائله عن حاله ، أو يتعرف إليه ولو بكلمة .

والفرد المسلم يحضر صلاة الجمعة كأنها عادة لا عبادة ، فهو يذهب إليها متأخراً ، وينصرف عنها عجلا ، وقد يجلس أثناء الخطبة لا يلقى إليها بالا ، ولا يعمل فيها عقلا ، ولا يحي بها قلباً ، وإذا أطال الخطيب قليلا أو كثيراً — حسب تقدير هذا الفرد العجلان — فالويل لذلك الخطيب !! . . .

ونحن نرى تلك المسارعة الشائنة إلى الانفضاض عقب التسليم من صلاة الجمعة ، مع الزحام الشديد على باب المسجد أو أبوابه عقب ذلك ، وكأن القوم كانوا فى سجن أو ضيق فهم يسارعون بالخلاص منه والفرار عنه ، وهذا يؤكد عدم استفادة الكثيرين من هذه الاجتماعات وعدم التأثر بحكمتها .

وقد يذهب الفرد المسلم إلى الحج وكل همه أن يمحو بالحج ذنوبه ، وأن يعود بلا تبعة عليه ، وإذا ما عاد إلى الذنوب بعد الحج فلا ضير عليه فيما يعتقد ، ففى استطاعته أن يكرر الحج فيكرر به المحو والإزالة ... وأما مقصد الحج الجماعى أو هدفه الاجتماعى ، فذلك ما لا يفكر فيه كثير من المسلمين . . . مع أنهم لو استغلوا مؤتمر الحج الأكبر استغلالا موفقاً لكسبوا وتقدموا كثيراً فى حياتهم .

لا بد للمسلمين من أخلاق ، ولا بد لهم من الأخلاق الإيجابية ، ولا بد لهم من الأخلاق الاجتماعية ، وبدون هذه الأخلاق لا يتم لهم نهوض ، ولا يستقر لهم تقدم .

الفصل السادس

الناحية العلمية

الإسلام رسالة إلهية دينية ، ولكنه فى الوقت نفسه رسالة عقلية فكرية ، أى أنه يساير العقل ، ويوافق العلم ، ويوائم التفكير السليم . والقرآن كتاب العقل ، فهو يحتكم إلى هذا العقل ، ويثيره للبحث فى كل مناسبة . وإذا كانت هناك أمور يستعصى على عقولنا فهمها فى أول الأمر وإدراك وجه الحكمة فيها ، فليس ذلك راجعاً إلى تناقض بين الإسلام والعقل ، بل لأن الوسائل قليلة ، أو لأن الجهود ضئيلة ، واتساع البحث كفيل بتحقيق التوفيق .

والإسلام يمجد العلم فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهناك فريق من الناس جهلاء يحسبون أن المراد بالعلم فى القرآن والحديث هو العلم الدينى فقط ، وبعض المستشرقين قد حاولوا بث هذا الفهم الخاطىء : ولكن العلم فى الإسلام بمفهومه العام يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا ؛ وفى القرآن والحديث مواضع جاء فيها ذكر العلم مراداً به علم الحياة والدنيا ، وذلك كقوله تعالى : « ألمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ من السماء ماءً فأخرجْنا بهِ ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ومنَ الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سودٌ . ومنَ الناس والدَّوابِّ والأنعامِ مختلفٌ ألوانه كذلك ، إنما يَخْشى اللهَ مِن عبادِهِ العلماء »

فالعلماء هنا هم العلماء بأمور الماء والنبات والجبال والإنسان والحيوان وألوان الأحياء ، كما يفهم ذلك من السياق .

وكذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو بالصين » والمسلم لا يطلب من الصين علماً دينياً ، فعنده من هذا العلم الدينى ما يكفيه ويشفيه ، فلابد أن يطلب من الصين علماً آخر له صلة بالحياة ؛ وماذا كان فى الصين يوم قال الرسول ذلك من علم الدين وهى وثنية يوم ذلك ؟ .

ومن هذا نفهم أننا مأمورون باسم الإسلام أن نعب من العلم ما نستطيع، وأن نطلبه فى كل مكان نستطيع الوصول إليه ، ومن أى شخص نستطيع الأخذ عنه ، لأن الحكمة ضالة المؤمن كما يقول الحديث ، فأينما وجدها فهو أولى بها وأحق .

لن يكون المسلمون أقوياء سعداء إلا إذا فتحوا أبوابهم للعلوم على اختلاف أنواعها ، وفتحوا أذهانهم لهذه العلوم كلها، ونافسوا غيرهم فى البحث العلمى والتنقيب فى آفاق الكون . ولقد مضى ذلك الزمن الكئيب الذى كان يقال فيه إن طلب العلوم الدنيوية أمر لا يليق بالمتدين ، أو أنه يلفت الإنسان عن العبادة وعلوم الدين ، فإن التوسع فى العلم يؤدى إلى تقوية الإيمان وتأكيد الإحساس بأن للكون خالقاً سبحانه !..

على أن هناك من يحاول تحميل آيات القرآن الكريم مالا تطيق من النظريات العلمية ، بدعوى أن القرآن قد تحدث عن كل مسائل العلم ، وهذه خطة غير قويمة ، لأن القرآن فى أساسه كتاب هداية وتشريع ، وليس هو فى أساسه كتاب علم وفكر ، وإن كان هذا لا يتعارض مع ما جاء فى القرآن الكريم من حقائق علمية ، أو مع أنه لا يناقض العلم الثابت...ومن

الواجب علينا فى هذا الباب أن نتجنب تعريض القرآن الكريم للتأويل العلمى المسرف ، لأن هذا يؤدى إلى الإغراب فى التأويل من جهة ، وإلى إخضاع النص القرآنى لتطور النظريات العلمية الموصول ، وإلى إخراج الكتاب الإلهى عن مداره الأساسى ، وهو مدار الهداية والإرشاد . .

ويجب علينا فى طلبنا العلم أن نكون شرهين منهومين ، فنى الأثر : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » ، ويجب ألا يكون علمنا علماً مبتوراً أو قشوراً ، لأن الجهل مع صفاء الفطرة قد يكون خيراً من المعرفة المشوهة التى تجعل من صاحبها مسخاً معوجاً متأرجحاً ، فلا هو مع الجاهلين قد بقى ، ولا هو بين العلماء قد صار ...

والحديث عن العلم يجرنا إلى الحديث عن التعليم وإلى الحديث عن المعلم . فمن واجب المسلمين أن يعنوا كل العناية بنشر التعليم فى أرجاء بلادهم ، لأن المؤسف المخزى أن بلاد المسلمين ما زالت آخر بلاد الدنيا فى نسبة التعليم ، ولا يمكن أمةً أمية جاهلة أن تنهض أو تتقدم .

ومن واجب المسلمين كذلك أن يعنوا بإعداد المعلم المثقف الواعى ، البصير الرشيد ، لأن هذا المعلم هو الذى يبنى العقول ويشيد النفوس ، ورحم الله أمير الشعراء حين أشار إلى ضعف المعلم ، وأنه سبب الضياع ، وأن قوة الحياة تكون بقوة العقول ، فيقول :

يا أرض مذ فقد المعلم نفسَه	بين الشموس وبين شرقك حِيلا
ذهب الذين حموا حقيقة علمهم	واستعذبوا فيها العذاب وبيلا
فى عالم صحب الحياة مقيداً	بالفرد ، مخزوما به ، مغلولا
صرعته دنيا المستبد كما هوت	من ضربة الشمس الرءوس ذهولا

سقراط أعطى الكأس ـ وهى منية ـ   شفتى محب يشتهى التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهى غباوة   فأبى ، وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة فى القلوب كثيرة   ووجدت شجعان العقول قليلا !

وحين نوه بخطورة التبعة التى ينهض بها المعلم ، فقال فيما قال :

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى   روح العدالة فى الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة   جاءت على يده البصائر حُولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى   ومن الغرور فسمِّه التضليلا

وإذا النساء نشأن فى أمية   رضع الرجال جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من   هم الحياة ، وخلفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما   وبحسن تربية الحياة بديلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له   أما تخلت ، أو أباً مشغولا

وأبيات شوقى هذه تذكرنا بأن بعض البلاد الإسلامية مازالت تقف حجر عثرة فى سبيل تعليم المرأة ، وهذا ضلال فى الرأى كبير ، وتعطيل لقوة هائلة فى الأمة وهى قوة المرأة ، ولست أدرى كيف صمت آذان هؤلاء عن قول حافظ وقد مضى عليه حين طويل من الزمن :

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

لا يمكن المسلمين أن ينهضوا ويتقدموا إلا إذا انتشر تعليم المرأة فى سائر بلادهم ، لأن تعليم الفتاة أهم فى النهضة والتقدم من تعليم الفتى ! ...

لقد كانت المرأة المسلمة فى عصورها المزهرة واسعة العلم والثقافة ،

ولذلك استطاعت أن تلد الرجال ، وأن تخرّج الأبطال ، وأن تسابق في ميادين المنافسة القوية الحكيمة ، ولابد للمرأة المسلمة المعاصرة أن تسير على سنن أختها في عصورها الناصرة ، وليس من العقل ولا من الحكمة أن نقتصر على ترديد ما كان عليه أسلافنا من مجد وعزة ، ظانين أن ترديد مفاخر السابقين وحده يكفي ، بل لا بد أن يكون لنا من العمل والأثر مثل ما كان لهم أو أكثر ، ورحم الله الشاعر الذي قال :

وإذا افتخرت بأعظم مقبورة فالناس بين مكذِّب ومصدق

فأقم لنفسك في انتسابك شاهدا بحديثٍ مجدٍ للقديم محقّق !.

الفصل السابع

الناحية الاقتصادية

أصبحت كلمة « الاقتصاد » تطلق فى العرف العام على الناحية المالية من الحياة ؛ وهذه الناحية لها خطورتها فى حياة الناس ، حتى صار كثير منهم يقولون : إن أهم شىء فى نظر الإنسان بعد دمه هو ماله ، ولا عجب فالمال عصب الحياة ، وأغلب مشكلات هذه الحياة يتصل بسبب ظاهر أو مستور بالناحية المالية ، لأن رزق الإنسان يستبد بأكثر عنايته والتفاته ، وأكاد أفهم من الحديث المنسوب إلى الرسول : « جُعل رزقى تحت ظلال رمحى » أنه لا يريد أنه يأخذ رزقه من طريق الحرب ، بل يريد أنه يصون رزقه المسوق إليه من ربه بهيبة سلاحه ، وفى هذا ما فيه من تنويه بشأن الرزق وحاجته إلى الحماية ؛ وفى الحديث الآخر يعطى الإسلام المال حرمة هو بها جدير ، فيقول الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

والملاحظ أن كثيراً من المسلمين مازالوا متخلفين مادياً واقتصادياً ؛ ومن عجب أن فريقاً منهم إذا قيل لهم : ألا ترون الغربيين كيف سبقوا وامتلكوا ؟ أجابوا بقولهم ؛ لهم الدنيا ولنا الآخرة ! . بينما المسلم الصحيح يلزمه أن يجيب على مثل هذا بقوله : لنا الدنيا ولنا الآخرة معها أيضاً !!. « وإنَّ لنا للآخرة والأولى » ! . . .

ومازال الأفراد فى كثير من بلاد الإسلام مهدورى الحقوق المادية ،

مضيعى الكرامة البشرية ، مع أن الله خلق عباده إخوانا ، ومازال فى بلاد من بلاد الإسلام إقطاع واحتكار وكنز ، وفحش فى الثروة الظنينة مع فحش فى الفقر المدقع ، وما زالت هناك ثروات ضخمة تكونت أو تتكون من السحت والسرقة والغصب والاحتيال والاستغلال ، مع أن الإسلام لا يرضى إلا بثروة نابعة من ينابيع مشروعة طاهرة .

وبين الرأسمالية الطاغية والشيوعية المطلقة ينهض نظام الإسلام الاقتصادى طريقاً وسطاً فيه خير الجانبين ، وليس فيه شرورهما ، فهو يبيح الملكية ويحترمها ، ولكنه يحارب الربا والاستغلال ، وهو يدعو إلى التجارة ، ولكنه يعارض الاحتكار ، ويتيح مجالات التنافس والربح والكسب ، ولكنه لا يرضى بالسحت ولا بالمال الحرام ، ولا يمانع فى التمتع بالطيبات وخيرات الرزق ، ولكنه يحارب الترف والجشع ، ويدعو إلى الزكاة المفروضة والتكافل الواجب ، ولكنه يحارب البطالة والكسل والاستجداء حين القدرة على العمل ، وهو لا يمنع أن يكون بعض الناس أجراء عند بعض ، ولكنه يحرم بخس العامل حقه أو مماطلته فيه ، أو إرهاقه وامتصاص دمه ، ثم تركه بعد ذلك حطاما ، وهو أخيراً يضمن لكل عاجز معدم مطالب حياته فى مال الأغنياء أو فى بيت المال .

وهذا النظام هو الذى نسميه باشتراكية الإسلام ، أو الاشتراكية الإسلامية ، ولقد كتب كاتبون مسلمون عن هذه الاشتراكية ما يعد أساساً صالحاً لتفهم مبادئها وتفصيل قواعدها ، ومن عجب أن الذين لا يفقهون الإسلام ، والذين يحقدون عليه قد يطول منهم الحديث عن

الاشتراكية قديماً وحديثاً بما لها وما عليها ، ثم يحرصون على تجنب الحديث عن اشتراكية الإســـلام القويمة ، مما يدل على الجهل أو على خبث الطوية .

ولسنا الآن بسبيل المقارنة بين اشتراكية الإسلام واشتراكية سواه من المذاهب والدعوات ، ولكننا نريد أن نقول إن اشتراكية الإسلام حين تطبيقها تكون أقوى أثراً ، وأينع ثمراً ، وأعمق تأثيراً من غيرها ؛ لأن غيرها نظم وضعية بشرية ، ليس لها من القداسة فى نفوس أتباعها ما لاشتراكية أمر بها الله سبحانه ، فصارت أوامر إلهية يعتقد المسلم أن تنفيذها تنفيذ لمشيئة الله ولأمر الله الذى خلقه فسواه فعدله فى أى صورة ما شاء ركَّبه ، ويعتقد أنه إذا لم ينفذها كان محل غضب الله وعقابه ؛ ثم إن اشتراكية الإسلام تمتاز بالرحمة والتلطف والتدرج ، بينما تمتاز الاشتراكية الوضعية بالعنف والإرغام والعجلة ، ولله در « شوقى » حين أشار إلى اشتراكية الإسلام فى همزيته ، فقال يخاطب رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام :

الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويتَ متئداً ، وداووا طفرةً	وأخفُّ من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونة وجباء
جاءت فوحَّدت الزكاةُ سبيله	حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهلَ الفقر من أهل الغنى	فالكل فى حق الحياة سواء
فلَوَ انّ إنساناً تخيَّر ملةً	ما اختار إلا دينك الفقراءُ !

ومن الواجب على المسلمين لكى ينهضوا ويتقدموا أن يعمموا الأخذ بهذه الاشتراكية الإسلامية فى بلادهم ، والفرصة موانية لتحقيق ذلك ، فإن جزءاً كبيراً هاماً من بلاد الإسلام ، وهو الجمهورية العربية المتحدة ، قد التزم بصفة رسمية حكومية أن يقيم فى نواحيه مجتمعاً اشتراكياً ديمقراطياً تعاونياً ، ويوم يتحقق هذا المجتمع بالصورة الكريمة التى نريد سنجد أن اشتراكية الإسلام أصبحت صبغة أصيلة لهذا المجتمع السعيد ...

ويجب أن يبادر ولاة الأمر فى بلاد المسلمين إلى التقريب العملى المادى المثمر بين الطبقات ، حتى لا يبقى هناك فقر مدقع فى مقابله غنى فاحش : وقد تكون بعض دول الإسلام قطعت شوطاً فى هذا الطريق ، ولكننا هنا نتحدث عن بلاد الإسلام كلها وعن المسلمين أجمعين ، ولا يزال هناك جموع من المسلمين يصطلون بنيران تفاوت فظيع شنيع بين أغنيائهم وفقرائهم ، وإذا كان الإقطاع قد زال من مكان فى بلاد الإسلام فما زال موجوداً فى بلاد أخرى ، وإذا كان قد زال فى الظاهر ، فما زالت له رواسب فى الباطن والأعماق ، فلا بد من هدم هذا الإقطاع من أساسه ، واقتلاعه من جذوره ، ولا بد من إقامة الثروات على صراطها الصحيح ، برد المغصوب منها أو المسلوب إلى مصادره التى اغتصب منها .

وإذا كان تحديد الملكية العقارية إجراء تستلزمه ظروف الإصلاح العاجلة ، حتى لا يبقى أفراد قلائل يملكون عشرات الآلاف ، بينما يوجد عشرات الآلاف من الأفراد لا يملكون شيئاً ، أو يملكون التافه من العقار ، فإن ما جاء به الإسلام من محاربة الكسب الحرام ، ومن محاربة

الربا والاحتكار والاستغلال ، ومن تفتيت الثروة عن طريق الميراث والزكاة والإسهام فى الشئون العامة الأخرى التى تستلزمها مصلحة الدولة فى ظروفها الخاصة ومناسباتها الطارئة ، إن هذا لكفيل بأن يحدد الملكية العقارية والنقدية بحيث لا يهيئ لها الفرص التى تطغى فيها أو تبغى .

وقد آن الأوان لكى ينفذ المسلمون نظام الزكاة الإسلامى ، لأنها حق الله الذى نص عليه القرآن والحديث والإجماع ، والواجب عليهم أن يجمعوا هذه الزكاة كما أمر الله ، وأن يوزعوها على مستحقيها ، ليمكنوا الفقير المحتاج من حقه ، دون إجهاد له فى المطالبة بهذا الحق ، ودون دفعها إلى من يقدر على العمل ، أو يستغنى عنها . ويوم يعمل كل قادر على العمل ، ويُخرج كل مسلم ما يجب عليه من زكاة ، وتُوزع هذه الزكاة بأمانة وقسطاس ، سنجد هذه الزكاة كافية كل الكفاية للقضاء على عجز العاجزين وفقر المفتقرين ، بل سيأتى يوم يفيض فيه الكثير من هذه الزكاة ، فتنفقه الأمة على ألوان من ترقية الحياة الإسلامية ، كما حدث قريب من هذا على عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز . . .

قال يحي بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقيا فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها ؛ قد أغنى عمر الناس ، فاشتريت رقاباً فأعتقتهم ، وولاؤهم للمسلمين » ! . . .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب : « إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى

يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم فما يجد ، فيرجع بماله ، قد أغنى الله على يد عمر بن عبد العزيز الناس » . .

ولا بد أن تؤخذ هذه الزكاة من جميع مواردها التى شُرعت فيها ، من المال والزروع والتجارة والحيوان وغيره ، ولا تعطى إلا لمستحقيها شرعاً ، حتى لا تكون الزكاة وسيلة لانتشار البطالة والاتكال ، لأن من واجب الأمة الإسلامية أن يحسن أبناؤها الجمع بين « الاكتساب والاحتساب » ، بأن يكون الشخص منتجاً كاسباً رابحاً من عمله وسعيه ، لا يكسل ولا يقنط ما دام قادراً ، بل يواصل العمل والدأب فيه ، ويكون مع هذا محتسباً ، أى متبرعاً متطوعاً ببعض ماله ، ولو تحلى الأفراد بهاتين الصفتين : الاكتساب والاحتساب ، لارتقى المسلمون درجات فوق درجات ، ولبلغوا الحالة التى كانت على عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ، حين كانوا يفتشون عمن يأخذ الزكاة فلا يجدونه !!...

☆ ☆ ☆

ونفهم من هذا أنه يجب على المسلمين أن يحاربوا الفقر باسم الدين ، ورحم الله أبا ذر حين يقول : إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر : خذنى معك . : . وأن يحاربوا الكسل والضعف والتخلف فى ميادين الحياة المادية باسم الدين ، وأن يحاربوا الشح والكنز ومنع الزكاة باسم الدين ، وأن يحاربوا الاتكال على الزكاة أو الصدقة ما دامت هناك قدرة على العمل باسم الدين ، وأن يحسنوا المواءمة بين الروح والمادة باسم الدين ، فيعلموا أبناءهم أن صاحب المادة السوى لا يعجز عن أن يكون صاحب روح قوى ، بل إن الضعف المادى قد يؤدى إلى ضعف الروح ، فهناك

كثير من الباحثين والمصلحين يقررون أن أكثر الرذائل منشؤها من خلل النظام الاقتصادى . فالسرقة يسببها فقر أو جشع ، وجرائم الغش والاختلاس والعرض رذائل اقتصادية فى كثير من الأحيان ، بمعنى أن الفقر والحاجة هما اللذان يدفعان غالباً إلى اقتراف تلك الجرائم ، فلو أزلنا الفقر والحاجة — وأزلنا معهما الترف والشح — لقضينا على كثير من أسباب هذه الجرائم التى تهدد المجتمع ، وتفت فى عضد الأمة !.

وللكواكبى عبارة بليغة عن المال يقول فيها : « وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ، ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعى الترف والسرف ، وينظرون إلى المال الزائد عن الحاجة الكمالية أنه بلاء فى بلاء ، أى أنه بلاء من حيث التعب فى تحصيله ، وبلاء من حيث القلق على حفظه ، وبلاء من حيث الافتكار بإنمائه ، وأما المكتفى فيعيش مطمئناً مستريحاً آمناً بعض الأمن على دينه وشرفه وأخلاقه » .

ويستتبع هذا أن تحرص الأمة على تهيئة وسائل العمل ، وتحقيق تكافؤ الفرص ، بأن يمكن ولاة الأمر كلّ فرد من أسباب العمل والكسب ، وأن يفسحوا طرق التنافس أمام المجموع بمهيئات متساوية ، ثم يُترك مجال السبق بعد هذا للمجاهد الدءوب ، ومن عجز عجزاً لا حيلة له فيه ضمنت الدولة كسبه وقوته . . .

ويجب تكريم العاملين وإعطاؤهم على قدر جهودهم وعنائهم ، مع دفع المتبطلين الأغنياء إلى العمل ، لأن البطالة عيب ولو لم يكن الإنسان محتاجا ، والرسول يقول : « أشرار أمتى الذين وُلدوا فى النعيم وغذوا به ، يأكلون من الطعام ألواناً ، ويتشدقون فى الكلام » ! . . .

وتجب تقويم أولئك الكسالى الذين يحتالون على الناس طالبين منهم المعونة بدعوى أنهم من محبي آل البيت النبوى الطاهر على صاحبه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، أو بدعوى أنهم من « الأشراف والسادة » الذين يدعون الانتساب إلى الحسين أو الحسن رضى الله عنهما وأرضاهما وأكرم مثواهما ، أو أنهم من الصوفية الأقطاب ، أو أنهم من الأولياء الصالحين ، أو أنهم من حملة القرآن والعلم . . .

هؤلاء جميعاً يجب أن نلجئهم إلى العمل ماداموا قادرين عليه صالحين له ، فآل محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم وبارك فيهم أول من عملوا ، والصوفية الأصحاء أسبق من جاهدوا ، والأولياء هم الذين يتقون ويجاهدون ، لا الذين يتظاهرون ويحتالون . . .

ومن الواجب على المسلمين كذلك وضع الحوائل الكافية التى تمنع الحاكم فيهم من استغلال الحكم للإثراء أو الغنى ، فحسب الحاكم راتبه بلا إسراف أو إفراط ، وليس الحكم مغنما ، بل هو تكليف وتبعة ، ولقد كان خلفاء الأمة الراشدون يتولون شئونها ، ويأخذون ما يأخذه غيرهم مما يكفيهم من بيت المال ، فإن استغنوا واكتفوا عفت أيديهم عن مال الأمة ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى كتب السيرة والتاريخ .

الفصل الثامن

الناحيـــة السياسية

من المنسوب إلى حسان بن ثابت قوله :

وما الدين إلا أن تقام شرائع　　وتؤمن سُبْل بيننا وشعابُ

وهو يريد بهذا أن هدف رسالة الإسلام هو إقامة شريعـــة الله ، وتحقيق الأمن والطمأنينة للناس .

ووجود الحكام الصالحين المصلحين للمسلمين ، الذين لا يستغلون ولا يعتسِفون ولا ينحرفون خير معوان على تحقيق هذا الهدف ، لأنه إذا صلح الرعاة صلح الرعايا ، أو كان لصلاح الراعى تأثيره فى الرعية على الأقل ؛ وحينما غنم المسلمون تاج كسرى وهو يساوى مئات الآلاف من الدنانير، حمله الجنود دون أن يمسوه ، حتى بلغوا به الخليفة عمر بن الخطاب ، فلما رآه عمر عظيما سليما ، دهش وعَجب ، وأعجب بأمانة هؤلاء الأمنـاء المحاويج الذين حملوا هذا التاج إليه دون أن يمسوه أو ينهبوه ، فقال عمر معبراً عن إعجابه : « والله إن الذين أدوا هذا لأمنـــاء ! » . وكان على ابن أبى طالب حاضراً ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، إن القوم رأوك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ! ..

وإذا أعطى الحاكم المسلمين القدوة والأسوة من نفسه ، فقد أبلغ العظة ،

وأجاد التوجيه والتأثير ؛ وإنما تتحقق القدوة من الحاكم إذا عرف أنه خادم لمحكوميه، وليس مسيطراً عليهم، وأن سلطته مستمدة من سلطتهم، فإذا صلح أبقوه، وإن فسد عزلوه، وأنه ليس بمعصوم من الحساب والعقاب، وأنه لا يستحق الطاعة إلا فى مجال الحق والخير، لأن الحديث يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »، وأنه حين ولى عليهم ليس بأقواهم ولا بأحسنهم، ولكن الولاية تبعة يستعين الله عليها . ورضى الله عن الخليفة الأول أبى بكر يوم رسم المنهاج فى هذا المجال، فقال للناس فى خطبته الأولى عقب توليه الخلافة : « إنى وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم »!.

وحين تولى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان مما قاله : « أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم »!.

وأكبر مصيبة يصاب بها الحاكم ويُبْتَلَى بشرها المحكومون هى مصيبة الظلم والاستبداد، ولقد كتب عبد الرحمن الكواكبى كتابه : « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وقصَرهُ على محاربة هذه الصفة، فهو يبدئ فيها الحديث ويعيد، ولا يسأم التفصيل والتحليل، بل يستبيح لنفسه الإعادة والتكرار، لأنه يحس بخطر هذه الآفة بعد أن اكتوى هو وغيره بنارها على عهده، فنراه بعد أن يعرّف الاستبداد بأنه غرور المرء برأيه، وأنفته عن قبول النصيحة، وأنه يراد به عند إطلاقه استبداد الحكومات، لأنها أعظم مظاهر أضراره التى تشقى الإنسان حين تجعل الحاكم يتصرف منفرداً بلا خوف من تبعة أو مراجعة، نراه يتفنن فى عرض مساوئ الاستبداد ووجوب مقاومتها بهذه العبارة :

« يقول المادى : الداء القوة والدواء المقاومة ؛ ويقول السياسى : الداء استعباد البريّة ، والدواء استرداد الحرية ؛ ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف ، والدواء الاقتدار على الاستنصاف ؛ ويقول الحقوقى : الداء تغلب السلطة على الشريعة ، والدواء تغلب الشريعة على السلطة ؛ ويقول الربانى : الداء مشاركة الله فى الجبروت ، والدواء توحيد الله حقاً .

وهذه أقوال أهل النظر ، أما أهل العزائم فيقول الأبىّ : الداء مد الرقاب للسلاسل ، والدواء الشموخ عن الذل ؛ ويقول المتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام ، والدواء ربطهم بالقيود الثقال ؛ ويقول الحُر : الداء التعالى على الناس باطلا ، والدواء تذليل المتكبرين ؛ ويقول المفادى : الداء حب الحياة ، والدواء حب الموت » ! !

ويرى الكواكبى أن أشد مراتب الاستبداد التى يجب أن يتعوذ الإنسان منها هى حكومة الفرد المطلق ، الوارث للعرش ، القائد للجيش ، الحائز على سلطة دينية ، ويبدو أنه كان يدرك إدراكا واضحاً مدى الخطورة الناشئة عن سوء استغلال السلطة الدينية فى السلطة السياسية ، لأن المستبد فى هذه الحالة يُدخِل فى أوهام الناس أن سلطته المستبدة ليست من صنعه ولا من ظلمه ، بل هى أمر دينى وسلطان إلهى ، فعليهم أن يطيعوه ويلبوه بلا تردد أو تدبر ، ولذلك يذكر أن الباحثين يقررون أن الاستبداد السياسى تولد فى كثير من الأحيان من الاستبداد الدينى …

ثم يرشد الأمة إلى واجبها حيال هذا الاستبداد ، فيقول : « المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم دراً وطاعة ، وكالكلاب تذللا ؛ وعلى الرعية

ن تكون كالخيل : إن خُدمت خَدَمت ، وإن ضُربت شرست ، وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ، ولا يُستأثر عليها بالصيد كله ، خلافاً للكلاب التى لا فرق عندها : أطعمت أو حُرمت حتى من العظام .

نعم على الرعية أن تعرف مقامها هل خُلقت خادمةً لحاكمها ، تطيعه إن عدل أوجار ، وخُلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف ، أم هى جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها » ! .

ويقول : « والأمة — أى أمة كانت — ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء والثبات ، حتى إذا ما اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها من جمعهم الكبير أفراداً كبار النفوس ، قادةً أبراراً ، يشترون لها السعادة بشقائهم ، والحياة بموتهم ، حيث يكون الله جعل فى ذلك لذتهم » .

وبعد أن يصول ويجول يطرح على بســـاط البحث عناصر خمسة وعشرين موضوعاً من الموضوعات الجليلة المتضمنة إشارات عميقة إلى وجوه الإصلاح التى تتقدم بها الأمة . ونلاحظ أن أغلبها يدور حول الاستبداد والتعريض به ، والتنديد بمآثمه ، والتحريض على هدم بنيانه ، ولقد كان الكواكبى بارعاً فى سرد هذه الموضوعات بما اشتملت عليه من عناصر وتوجيهات ، لأنه أراد بذلك أن يثير ما غفا من إحساس الجماعة وشعورها ، حتى تدرك ما هى فيه من ظلم وهضم بسبب الاستبداد ؛ فهو يطالب الباحثين مثلا بأن يبحثوا حقيقة الأمة : أهى مخلوقات مستعبدة لمالكيها ، أم مجموعة بين أفرادها روابط تسوى بينهم ؟ . وما الحكومة ؟ أهى سلطة تملك وتمتع ، أم وكالة عن الأمة بإرادتها ولمصلحتها ؟ .

وما الحقوق العامة ؟ أهى حقوق الحاكمين المستغلين ، أم حقوق الأمة التى يتمتع كل فرد فيها بنصيب منها ؟ .

وما المساواة فى الحقوق ؟ أهى أن تتصرف الدولة كما تهوى بذلا وحرماناً، أم هى العدالة فى المغارم والمغانم ؟ وما نوع الحكومة الصالح ؟ أهو الاستبدادية أم الملكية المقيدة أم الرئاسة الانتخابية ؟ . وما وظيفة الحكومة ؟ أهى الإدارة كما ترى ، أم النزول على حكم دستور محدد ؟ ... وهل طاعة الحكومة تكون عمياء بلا فهم أو اقتناع ؟ ومن الذى يفرض الضرائب ؟ أهو الحاكم أم الأمة ؟ . وهل يكون التجنيد لقهر الأمة أو للدفاع عنها ؟ وهل للحكومة أن تتصرف بلا حساب من الشعب ؟ . وهل يكون العدل ما يراه الحاكم أو ما يراه القانون ؟ وهل يجوز أن يكون هناك شخص فوق القانون ؟ . وما القانون ؟ أهو رغبة الحاكم أم رغبة الأمة ؟ . وكيف توزع الوظائف والحقوق ؟ أبطريق القرابة والوساطة أم بطريق الأهلية والجدارة ؟ وهل يجوز جمع السلطات المتعددة فى يد واحدة ؟. وهل يجوز الحجر على الآراء والأفكار والحريات ؟ وأخيراً.. كيف يزول الاستبداد ؟ ... هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها ، أو أنه واجب عقلاء الأمة وأحرارها ؟! . . .

وأمير الشعراء شوقى يقول هذه الكلمات فى خواطره : « من استقل بنفسه استوحش ، ومن استقل برأيه ضل . الرأى المسير إن قعدت عنه تغير . هلكت أمة تحيا بفرد وتموت بفرد . شورى من الحجاج وزياد خير من الفرد ولو كان عمر . جئنى بالنمر العاقل أجئك بالمستبد العادل » .

وهى كلها كلمات تصور سوء الانفراد بالرأى ، ونكبة الاستبداد فى

الحكم ، وترمز إلى منفعة الشورى ، وأنها أساس الحكم الصالح ، ومن هذا نفهم بوضوح أن المسلمين بحاجة قصوى إلى إزهاق روح الاستبداد فى بلادهم ، وانتهاج منهج الشورى فى حكمهم ، حتى يتقدموا ويغنموا ، لأن نظام الشورى هو الوسيلة لأن يحكم الشعب نفسه بنفسه ولمصلحته .

والإسلام دين قد جاء يدعو إلى الشورى ويزكى أمرها ، وإن لم يضع لها نظاماً تفصيلياً ملزماً ، بل ترك تفصيل ذلك لاختلاف الأزمنة والأمكنة ، وتعدد الوسائل والأساليب ، وهذا من رحمة الله بعباده ، ومن حكمه البالغة ... فنى القرآن الكريم سورة سميت باسم « الشورى » وجاء فيها قول الله تبارك وتعالى فى وصف شأن المسلمين : « وأَمْرُهُم شُورَى بيْنَهُم » ، والله تعالى قد أمر نبيه بمشاورة أصحابه فقال له : « وشاوِرْهم فى الأمر » . وكان الرسول صلوات الله عليه يشاور فى مختلف الشئون ، ويأخذ أحياناً برأى غير رأيه ، ولقد قال لأبى بكر وعمر : « لو ذهبتما لرأى ما خالفتكما » . وقد أشار القرآن إلى تصرف ملكة سبأ التى استشارت قومها ، قالت : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » .

ومنهج الشورى يستتبع بطبيعة الحال زوال الملكية المطلقة الطاغية ، والفردية المستبدة الباغية ؛ وإذا كان الله تعالى يقول : « يا أيُّها الذين آمَنوا أطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسول وأولى الأمرِ منكم » فمعنى ذلك أن يطيعوا ما أمر به كتاب الله ، وما دعا إليه رسول الله من هدى ربه ، وما اتفق عليه أهل النظر والاختصاص من مصالح الأمة ومنافعها ، فكأن « أولى الأمر » هنا هم الذين يستحقون بكفايتهم

واختصاصهم أن يكونوا أهل الرأى والمشورة ، وهذا ما يقضى به نظام الشورى ، إذ لا يعقل أننا كلما هممنا بإجراء إصلاح أو إتمام عمل ذهبنا لنسأل كل فرد من أفراد الأمة الكبيرة الضخمة عن رأيه فيه .

ولا بد للأمة الإسلامية من أن يضمن القادرون فيها الحرية الكافية لإبداء الرأى ، وأن يحققوا الحصانة الكافية لأهل النصح والإرشاد ، وأن يصونوهم عن الأذى والظلم والاضطهاد بسبب رأيهم أو توجيههم ، لأن الظلم هو الغول المهلك الذى يزهق روح الشجاعة الأدبية والحسية ، ولقد روى عن الشعبي أنه قال :

خرج أسد وذئب وثعلب يتصيدون ، فاصطادوا حماراً وحشياً وغزالا وأرنباً ، فقال الأسد للذئب : اقسم . فقال : « حمار الوحش للملك (يقصد الأسد) ، والغزال لى ، والأرنب للثعلب » . فرفع الأسد يده وضرب الذئب ضربة ، فإذا هو مجندل بين يديه ! . . .

ثم قال الأسد للثعلب : اقسم هذه بيننا . فقال الثعلب : « الحمار يتغدى به الملك ، والغزال يتعشى به ، والأرنب له بين ذلك » .

فقال له الأسد : ويحك ! من علمك هذه القسمة ؟ . فقال : القضاء الذى نزل برأس الذئب ! ! . .

ولن يستقيم للمسلمين أمر ما دامت قصة الأسد والذئب والثعلب تتكرر فى دنياهم ! ! . . .

والباحثون فى المجتمعات يقولون إن المجتمع الصالح لا بد أن يجتمع فيه صنفان : السراة والهداة ؛ والسراة هم الأمراء الصالحون المصلحون .

المنفذون لدعوات الخير ، والهداة هم العلماء الخبراء الذين يعرفون وجوه الحق ، ويصرحون بها ، دون أن يخافوا فى ذلك لومة لائم ، والشاعر القديم قد أشار كما أظن من طرف خفى إلى مثل هذا المعنى حين قال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة إذا جهالهم سادوا

لأن سيادة الجاهلين تكون حين ينعدم العلماء المفقهون الناصحون ، فقد يوجد الحاكم القوى المقتدر ، ولكنه يحتاج إلى مذكِّر ومبصِّر ، فإذا وُجد بجواره العالم الناصح المخلص الآمن كمل أمر هذا الحاكم . . .

* * *

ولا بد من إشاعة روح الأخوة والمساواة بين المسلمين ، وأن تزول هذه الفروق المصطنعة التى أنشأتها جهالات العصبية والمفاخرة بالنسب والحسب والنشب . لأن أساس الإسلام المساواة بين الناس ، ولأن داء الأمم التى بادت هو التفرقة بين الأفراد بسبب الأموال والألوان والأجناس ، ولقد روى لنا التاريخ أن المغيرة بن شعبة زار فارس فرأى عظماءها أصحابَ مظاهر وكبرياء وتفريق بين الناس ، ورآهم يستعبد القوى منهم الضعيف ، ومنعوه حينما أراد الجلوس على سرير رستم ، فقال لهم مستنكراً :

« كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه . ولم آتكم ، ولكن دعوتمونى . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » ! ! . .

وتقتضى هذه المساواة أن يخضع جميع من فى الأمة — حاكماً أو محكوماً ، راعياً أو رعية — لشرعة الحساب والعقاب ، لأن هذا هو أساس الإسلام . وحسبنا أن الله تبارك وتعالى حاسب نبيه وعاتبه عدة مرات فى القرآن ، وكأنه سبحانه يريد بذلك أن يشير إلى أنه لو كان فى الناس أحد يعلو على شرعة الحساب لمكانته أو منصبه أو نسبه لكان النبى ذلك الإنسان ، ولكن النبى وهو أشرف الناس وأقربهم من الله لم يعل على شرعة الحساب ، فغيره أحق بأن ينزل على حكم هذه الشرعة ، وإلا فياويل الشعوب من الطغاة المقدّسين الذين يعلون على القانون ولا يخضعون للحساب .

وصلوات الله على محمد سيد هذه الأمة وقائدها يوم قال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » !! .

* * *

ومن أهم الأمور فى إصلاح الحالة السياسية فى بلاد المسلمين استعمال الأصلح فى الوظائف والأعمال المختلفة ، دون اعتبار لقرابة أو صداقة أو معرفة أو هوى ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله » . ويقول الرسول : « إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : يارسول الله ، وما إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّد الأمر (أى أسند) إلى غير أهله (أى غير أكفائه) فانتظر الساعة » وفى مسند الإمام أحمد

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً لمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » .

وقال عمر : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين » . وقال معاوية بن أبى سفيان لصعصعة بن صوحان : صف لى عمر بن الخطاب ، فقال : « كان عالماً برعيته ، عادلا فى قضيته ، عارياً عن الكبر ، قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للبعيد » .

ويروى أن الربيع قال للخليفة المنصور : « إن لفلان حقاً ، فإن رأيت أن تقضيه وتوليه ناحية » ؟ فأجابه المنصور قائلا : « يا ربيع ، إن لاتصاله حقاً فى أموالنا ، لا فى أعراض المسلمين وأموالهم ، إنا لا نولى للحرمة والرعاية بل للاستحقاق والكفاية ، ولا نُؤْثر ذا النسب والقرابة على ذى الدراية ؛ فمن كان منكم كما وصفنا شاركناه فى أعمالنا ، ومن كان عطلا لم يكن لنا عذر عند الناس فى توليتنا إياه ، وكان العذر فى تركنا له ، وفى خاص أموالنا ما يسعه » ! .

ومما يؤازر نهضة المسلمين ويقوى شأنهم حرصهم على روابط الأخوة والجامعة الإسلامية ، فهناك ما يزيد على أربعمائة مليون مسلم فى الأرض ، إلههم واحد ، ودينهم واحد ، ورسولهم واحد ، وعبادتهم واحدة ، وتاريخهم واحد ، وآلامهم واحدة ، وآمالهم واحدة ، وتكتلُ هذا العدد الضخم فى رابطة عمادها التآخى والتفاهم والتعاون والتناصر يجعل المسلمين قوة لها شأنها واحترامها بين الأمم .

وليست هذه الجامعة حلماً مستحيل التحقيق ، بل يمكن تحقيقها بتضافر الجهود ، وقد وُجدت هذه الجامعة فى شبه كتلة إسلامية واسعة أكثر من مرة ، فوُجدت الكتلة الإسـلامية الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وبخاصة بعد الفتوح العمرية ، ووُجدت مرة ثانية فى عهد الأمويين ، واتسعت فى نطاقها مرة ثالثة على عهد العباسيين ، ولم تتفرق هذه الكتلة أو تتمزق إلا بالمكائد والدسائس والأهواء . . . واليوم يمكن هؤلاء المسلمين أن يتكتلوا فى رحاب هذه الجامعة الإسلامية التى لا تقصد إلى بغى أو عدوان ، بل تعز نفسها بعزة الله ، وتصادق من يصادقها ، وتعادى من يعاديها ، وتنشر رحمة الله فى الآفاق . .

وهذا التكتل يقتضى إزالة هذه الفروق الواسعة بين الدول الإسلامية فى النظم السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية والجمركية والنقدية والصحفية والتعليمية وغيرها ، كما يقتضى إقامة محكمة عدل إسلامية يكون لها قوة مادية وأدبية ، وتسير فى ضوء قوله تعالى : « وإنْ طائفتان من المؤمنينَ اقتتلوا فأصْلِحُوا بيْنهُما ، فإنْ بَغَت إحداهُما على الأخرى فقاتِلوا التى تَبْغى حتى تَفِيءَ إلى أمْرِ الله ، فإن فاءت فأصْلِحوا بينهما بالعَدلِ ، وأقسطُوا إنَّ اللهَ يُحبُّ المقْسطين ، إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلِحوا بينَ أخويْكُم واتَّقوا الله لعلكم تُرحَمُونَ »

* * *

ومن الواجب على المسلمين أن يحرروا الدين من أطواق العبودية للسياسة وإسار الرق للحاكم . . . لأن السياسة بمعناها العرفى تكيِّف

هذا الدين فى كل حين بما تهواه وتريده ؛ وما أشبه الدين فى يد السياسة بقطعة من العجين تشكلها أشكالا مختلفة مما يوجد التناقض بين بعضها والبعض الآخر، ولكن السياسة تسمى هذه الأشكال فى كل الأحوال باسم الدين ؛ ويقف البصراء بحقيقة الدين متأسفين متألمين نادبين حظ الدين المسكين، وعلى الجانب الآخر يقف الجاهلون لحقيقة الدين ضاحكين هازئين ساخرين من هذا الدين الطيِّع الذى يقبل التشكل بكل شكل، ولا يأبى الاستجابة لأى تحريف، ويحمل الدين المسكين تبعة هذا الإجرام السياسى فى حق الدين.. وليس هذا الإجرام وليد العصر الذى نعيش فيه، بل هو عميق الجذور فى تاريخ الأمة الإسلامية التى لقيت بسببه من البلايا والنكبات ما تخر له الجبال هدا...

ويستطيع الباحث أن يراجع على سبيل المثال الفتاوى الدينية والآراء الفقهية المتصلة بالأمور العامة، أو التى تتصل بالأمور ذات الصبغة السياسية أو الحزبية، مما أذيع على الناس أو نُشر خلال عشرات قليلة من السنين، فإنه سيرى أن هذه الآراء قد تلونت تلون الحرباء، بسبب تعدد الوجهات السياسية المتعاقبة؛ وحسب الحاكم المقتدر أن يطلب من المنتسبين إلى الدين الذين يدّعون تمثيله، أو يشير أو يرمز أو يلمح إلى أمر من الأمور يريده مجلوا على الناس فى إطار دينى، حتى يسارع هؤلاء طوعاً واختياراً ورغبة، أو رهبة وخشية وخوفاً، إلى تقديم الفتوى المطلوبة أو التحريف المراد...

بل لو راجعنا فتاوى بعض الأشخاص لرأينا الواحد منهم قد قال فى المسألة الواحدة أكثر من رأى، وربما كان بعض هذه الآراء يناقض البعض الآخر تماماً، وذلك لأنه قال لهؤلاء الساسة ماأرادوا، ثم جاء غيرهم

فقال لهم نفس الشخص ما أرادوا ، وكان ما أراده هؤلاء غير ما أراده السابقون ، ولم يفكر قبل ذلك ولا بعد ذلك فى أن يرضى ربه أو يصدق الوقوف مع دينه ، مع أنه يطالع فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « من طلب رضا الله بغضب الناس أغناه الله عن الناس ، ومن طلب رضا الناس بغضب الله وكله الله إلى الناس » . وليس هناك أذل ممن يكله رب العالمين إلى الناس ليسكروا به ، ثم يعجزوا عن نصرته !.

وواجب المسلمين هنا هو أن تتجرد من علمائهم طائفة مخلصة عليمة ، لا سلطان عليها للسياسة أو الغرض أو المرض ، لتغربل هذه الفتاوى المنحرفة ، وتلك الآراء المضللة ، وتعرض أمور المسلمين الخاصة والعامة على الكتاب والسنة وهدى المسلمين الصادقين ، وتقرر بعد هذه الغربلة وهذا العرض أحكام الدين ومقرراته فى شئون الفرد والجماعة ، والأسرة والدولة والحكم ، والحرب والسلم ، وعلاقة المسلمين بسواهم ، وموقف الإسلام من أمور الاقتصاد والاجتماع . . . تقرر حكم الله فى هذه الأمور تقريراً بصيراً مضبوطاً ، لا يخضع لهزات السياسة ، ولا لرغبة الحاكم ، ولا للمؤثرات الأخرى .

وهذا الواجب ضرورى مقدس ، وكل تأخير فى أدائه يزيد فى العلة ، ويباعد بيننا وبين الاهتداء بالملة . ومن أعجب العجب أن سكوت المسلمين قد طال على استغلال السياسة لنصوص الدين فى مختلف بلادهم ، وأن الذين يجهرون بكلمة الحق يذادون فى أنحاء الأمة الإسلامية عن مواطن الاستماع والاستجابة ، بينما يلقى الذين يحرّفون ويستجيبون لرغبة السياسة المؤازرةَ والتأييد .

الفصل التاسع

بين العروبة والإسلام

من أهم وسائل تقدم المسلمين أن يتقدم العرب ، لأنه إذا تقدم العرب تقدم المسلمون تبعاً لهم ، لأن أغلب العرب مسلمون ، والعرب هم أهل الدعوة الأولى ، وحملة الدين إلى الناس ، وأجدادهم هُم الذين فقهوا — فى الطليعة — تعاليم هذا الدين وطبقوها ، وهم الذين شيدوا دعائم الأمة الإسلامية فى فجر تاريخها ، وهم الصالحون اليوم لتجديد شباب هذه الأمة وبعث الحياة والقوة فى كيانها . ولأمرٍ ما اختار الله أمة العرب من بين الأمم لتكون متلقية وحيهِ ومبلِّغةَ دعوته ، ولعل «لوثروب ستودارد» الباحث الأمريكى يشير إلى هذا الأمر حين يقول : « إن العرب ـ وإن كان ماضيهم ما برح منذ عهد متطاول فى القِدم حتى الرسالة ـ ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمةً استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التى بدأت منذ نشوء الإسلام تظهر جلية إلى عالم الوجود » .

ونهضتنا الحاضرة تحتاج من أخلاف هؤلاء العرب الماجدين أن يستوحوا مواريث السلالات العربية الضخمة التى استنارت بضوء الإسلام، فيحرصوا على عزة المسلمين ، كما أن المسلمين الأصحاء يحرصون على عزة العرب وقوتهم ، لما بين العروبة والإسلام من تلازم وارتباط . وإذا كان هناك فريق من الناس يظنون أن ثمة تناقضاً أو تخالفاً بين

الاعتزاز بالعروبة والاعتزاز بالإسلام فأولئك جاهلون مخطئون ، لأن الاعتزاز بالعرب أمر يدعو إليه الإسلام نفسه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « أحب العرب من قلبك » ، ويقول : « أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة عربى » ، ويقول : « بغض العرب نفاق » ، ويقول : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ويفاخر بعروبته فيقول : « أنا أعربكم » ، ويقول : « أنا أعرب العرب » ، ويقول : « أنا سابق العرب » .

وهناك أعداء للعروبة والإسلام معاً يعملون على تأريث العداوة بينهما لكى لا تعلو كلمة للإسلام أو للعروبة ، ولقد قلت منذ حين لأحد المسئولين عن توجيه القومية العربية : « إن هناك أمراً خطيراً لا بد من التنبيه إليه والعناية بعلاجه ، وهو ذلك العداء المصطنع الذى افتعله بعض الغلاة أو بعض الأعداء بين القومية والدين ، أو بتعبير آخر بين العروبة والإسلام .

ولقد استفاد أعداؤنا كثيراً من تأريث نيران هذه العداوة بين العروبة والإسلام ، بل كانوا يحرصون أحياناً على أن يحاربوا القومية العربية بالإسلام ، ويحاربوا الإسلام بالقومية العربية ، لكيلا تلتقى القومية بالإسلام فى ميدان التعاون والتكافل ، ولكى تظل القومية ضعيفة من جهة ، ويظل الإسلام ضعيفاً من جهة أخرى ، فيكسب الأعداء كثيراً ، لعلمهم أن الدعامتين القويتين فى هذه الأمة العربية هما القومية والدين ؛ فكان هؤلاء الأعداء إذا رأوا نهضة قومية أوحوا إلى بعض الأغرار أو العملاء بأن يحاربوا هذه النهضة باسم الدين ، مدعين أن الدين

لا يعرف نزعة قومية ولا وجهة وطنية ، مع ان الرسول يقول : « حب الوطن من الإيمان » ؛ وما يزالون يبذلون جهودهم فى هذا المجال حتى يضعفوا هذه النهضة .

وكذلك إذا رأوا نهضة دينية دفعوا أمثال هؤلاء الأغرار أو العملاء بطرقهم الكثيرة إلى محاربة هذه النهضة باسم القومية ، مدعين أن الدين يدعو إلى الرجعية والتخلف وتميُّع القومية ، ويعوق عن العمل لأجل الوطن ؛ ويثابرون كذلك فى هذا المجهود حتى يضعفوا تلك النهضة .

ويوم يوفقنا الله سبحانه لحسن الجمع والتنسيق والتكافل بين القومية والعقيدة الدينية نحقق الجليل الكثير من آمالنا ، لأننا سنجد أنفسنا وطنيين إلهيين ، وقوميين مؤمنين ، فنزداد قوة على قوة ، وعزة فوق عزة » ! .

ومفهوم قول الرسول : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » أنه إذا عز العرب عز الإسلام ، ومنذ سنوات طويلة وأنا أردد فيما أكتب وأخطب الدعوة إلى التوفيق وحسن التعاون بين الإسلام والعروبة ، مكرراً قولى : إن العروبة وعاء الإسلام ، وإن الإسلام روح العروبة ، وإنى لأومن — ومر الأيام يؤكد هذا الإيمان — بأن تحقق الوحدة العربية نصر كبير للأمة الإسلامية ، وأنه إذا تحققت الوحدة بين العرب كان ذلك تمهيداً أى تمهيد لتحقق الأخوة الإسلامية الجامعة ، لأن العرب يشبهون دائرة داخل دائرة أكبر منها هى المسلمون ، والخير الذى يتحقق للدائرة الداخلية ينال الدائرة الخارجية الفسيحة . . .

ولقد كان من نتيجة كفاح العرب الأخير فى سبيل حريتهم

واستقلالهم أن استيقظت فيهم القومية العربية ، وانتشرت دعوتها بينهم بصورة قوية واضحة ، حتى نص الكثيرون منهم عليها فى مناهجهم الأساسية وقواعدهم السياسية العامة ، ونحن فى فورة الحماسة لهذه القومية ، وفى ثورة الجهاد لتحقيقها وتكريمها ، يجب أن نذكر الصلة الوثيقة — التى يلزم أن تزداد على الدوام توثقاً — بين العروبة والإسلام ، وما عقدته يد الله الحكيمة القوية لا يجوز أن تحله يد الإنسان أو يد الشيطان .

وقد أراد العليم الخبير أن تكون العروبة وعاء الإسلام ، وأراد فى الوقت نفسه أن يكون الإسلام روح تلك العروبة ، والعامل الهام فى تحريرها وتكريمها وتعظيمها وتخليدها على الأيام . . . فقد شاء الله أن يكون نبى هذا الدين رجلا عربياً من صميم العرب وأصدقهم فى العرب نسباً ، وجعل الله مبعث هذا النبى ومبدأ دعوته العالمية الباقية فى أرض عربية وواد عربى هو أشبه بمركز الدائرة بين بلاد العروبة ، وأنزل الله دستور هذا الدين المتعبد به ، وهو القرآن المجيد المحفوظ ، بلسان عربى مبين ، وفصله بياناً عربياً غير ذى عوج ، وجعل تفسير هذا الدستور الإلهى الخالد تفسيراً عربياً فى لغته وبيانه ، وهذا التفسير هو الحديث النبوى الشريف .

وجعل الله المسارعين إلى هذا الدين وحملته الأوائل الموصوفين فى كل جيل بأنهم السلف الصالح ، وبأنهم السابقون المحسنون ، جعلهم قوماً عرباً من صميم العرب فى دارهم وجنسهم ولغتهم وخصائصهم ؛ وجعل القبلة التى يتجه إليها المسلمون كل يوم عدة مرات بأبصارهم وبصائرهم ، وأشباحهم وأرواحهم ، وحواسهم ونفوسهم ، بنية فى أرض عربية عريقة العروبة

وهى الكعبة الحرام فى مكة المكرمة ؛ الكعبة التى يقول فيها القرآن المجيد : « جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرام قياماً للناس » . ومكة المشرفة التى يشير إليها القرآن وينوه بها ، ويقرر أن الكعبة فيها أول بيت وضع للناس ، فيقول سبحانه : « إنَّ أوَّل بيتٍ وُضع للناسِ للذى ببكَّةَ » ... إلخ .

وإذا كان الإسلام قد رفع من شأن العروبة بهذا القدر ، فإن العرب الأوائل الذين حملوا رسالة هذا الدين قد أدركوا فضل هذا الصنيع من الإسلام ، فاستجابوا له ، وأخلصوا فى خدمته ، وخضعوا لسلطانه طواعية واختياراً ، واعتزوا به الاعتزاز البليغ ، ونسوا فى سبيله أحسابهم وأنسابهم ، وعنجهياتهم وعصبياتهم ، وباعوا لله من أجله أرواحهم ، وبذلوا أموالهم ، وحصروا فخارهم فى الاعتزاز بهذا الدين والعمل بمبادئه الإنسانية السمحة ، حتى صار قائلهم يهتف :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

أو يهتف قائلهم :

أبى الإسلام ، لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم !!

ولا شك أن هذا تقدير منهم للجميل ، وعرفان للفضل الجليل ، فقد أعطاهم الإسلام عز العاجلة ونعيم الآجلة ، ورفع ذكرهم بين الناس ، وأعز شأن نبيهم بين العالمين ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال لنبيه : « وَرَفعْنا لكَ ذِكْرك » ، فإنما رفع ذكره بنبوة الإسلام ورسالة القرآن وجلال هذا الدين ؛ وكذلك رفع الله ذكر قومه بالإسلام ، فالقرآن يقول : « وإنه لذكر لك ولقومك » أى تمجيد وتشريف ،

ويقول : « وكذلكَ أوْحَيْنا إليك رُوحا مِن أمرنا ، ما كنتَ تَدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكن جعلناه نوراً نَهدِى به مَن نشاء مِن عِبادنا ، وإنك لتهْدِى إلى صراطٍ مستقيم ، صِراطِ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرضِ ، ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمورُ » .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد للعروبة من الإسلام ، لأنه يزكيها ويقويها ، ويلقى عليها وشاحاً من تمجيده وتأييده ، ولا يستطيع الإسلام أن يفصم روابطه بهذه العروبة ، لأن منها نبيه وقبلته وأبطاله ولغة قرآنه وحديثه ، وإن معنى كلمة « عربى » تمتزج بمعنى كلمة « مسلم » فى أذهان الملايين من المسلمين ، فهم يكادون ألا يفرقوا بينهما .

وليست الدعوة إلى توثيق الرابطة بين العروبة والإسلام دعوة إلى عصبية دينية أو طائفية اعتقادية ، فإن كثرة العرب الغالبة مسلمون ، والعربى المسلم لا يقبل تضييع دينه أو إهماله ، وإذا كان هناك من العرب فريق من أهل الكتاب غير المسلمين ، فلأن يكون هؤلاء متدينين حسبما يعتقدون أفضل من أن يكونوا غير متدينين ، لأن التدين وازع عن الشر ودافع إلى الخير ، فالدعوة إلى اعتزاز العروبة بالإسلام لا يتعارض مع وجود فريق من المواطنين غير المسلمين بين العرب المسلمين ، لأن الإسلام يفرض على أهليه أن يحفظوا حقوق غيرهم من الناس مهما كانوا ، فكيف بزملائهم وشركائهم فى الوطن الواحد ؟ ! . .

والباحث فى نهضة المسلمين يرى أن يقظة العرب مفتاح لهذه النهضة ، ومما يحسن أن نلاحظه أن السيد عبد الرحمن الكواكبى حينما أراد أن

ينشىء جمعية لإنهاض المسلمين سماها « جمعية أم القرى » ، وأم القرى يراد بها مكة ، ومكة كمركز الدائرة الروحية لبلاد العرب ، وجعل المركز الرسمى لهذه الجمعية فى مكة المكرمة ، وحينما لخص ما يجب لإزالة الفتور فى المسلمين قال إن « الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة فى العرب خاصة » ، ولما كان يؤمن بأن نهضة المسلمين يجب أن تعتمد على الهداية الدينية صرح بأن العرب هم أمثل الناس للقيام بهذه الهداية ، فقال : « ولا شك أنه لا يقوم بالهدى الدينى ويغار على الدين أمة مثل العرب » .

وقد أفاض فى ذكر الخصائص والمميزات التى تجعل العرب أصلح الأمم للقيام بإنهاض المسلمين ، فذكر فى القرار السادس للجمعية هذه العبارة التى ننقلها بنصها لأهميتها فى تبيان مكانة الأمة العربية وصلاحها لتحقيق تقدم المسلمين :

« إن الجمعية بعد البحث الدقيق والنظر العميق فى أحوال وخصال جميع الأقوام المسلمين الموجودين ، وخصائص مواقعهم ، والظروف المحيطة بهم واستعداداتهم ، وجدت أن لجزيرة العرب ولأهلها — بالنظر للسياسة الدينية — مجموعة خصائص وخصال لم تتوافر فى غيرهم ، بناء عليه رأت الجمعية أن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم ، لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً ، وأن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض .

على أن لبقية الأقوام أيضاً خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاماً مهماً فى بعض وظائف الجامعة الإسلامية ، مثل أن معاناة حفظ السياسة — ولا سيما الخارجية — متعينة على الترك العثمانيين (١) ، ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية يليق أن تناط بالمصريين ، والقيام بمهام الحياة

(١) فلنتذكر أن الكواكبى قال هذا الكلام منذ قرابة سبعين سنة

الجندية يتناسب أن يتكفل بها الافغان وتركستان والخزر والقوقاس يميناً ، ومراكش وإمارات أفريقيا شمالا ، وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاها أهل إيران وأواسط آسيا والهند وما يليها .

وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية ، بناء عليه رأت الجمعية من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها ، وأهلها ومن يجاريهم ، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هى خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً ، وذلك لأجل رفع التعصب السياسى أو الجنسى ، ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب ، فنقول :

١ — الجزيرة هى مشرق النور الإسلامى .
٢ — الجزيرة فيها الكعبة المعظمة .
٣ — الجزيرة فيها المسجد النبوى ، وفيه الروضة المطهرة .
٤ — الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية ، لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً ، وأقصى أفريقيا غرباً .
٥ — الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأدياناً ومذاهب .
٦ — الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب .
٧ — الجزيرة أفضل الأراضى لأن تكون ديار أحرار ، لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعى .
٨ — عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم .
٩ — عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين ، لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم .

١٠ — عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين ، لأنهم أعرفهم فيه ، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة فى الدين .

١١ — عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين وتأييده والفخار به ، خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم فى الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا .

١٢ — عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً سلفياً بعيداً عن التشديد والتشويش .

١٣ — عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية ، وأشدهم أنفة ، لما فيهم من خصائص البدوية .

١٤ — عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم .

١٥ — عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة ، بدليلى : سعة لغتهم ، وسمو حكمتهم وأدبياتهم .

١٦ — عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة فى سبيل مقاصدهم ، وأنشطهم على التغرب والسياحات ، وذلك لبعدهم عن الترف المذل لأهله .

١٧ — عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم ، فهم يخالطون ولا يختلطون .

١٨ — عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم .

١٩ — العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين فى المعارف ، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .

٢٠ — العرب لغتهم هى اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون .

٢١ — العرب لغتهم هى اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين .

٢٢ — العرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية .

٢٣ — العرب أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشئون العمومية .

٢٤ — العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية .

٢٥ — العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف سماحة .

٢٦ — العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً .

فهذه هى الأسباب التى جعلت جمعية أم القرى تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية ، والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب فى الدين ، وللحزم والعزم ، عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن يحميهم من التعصب السيء للسياسات والجنسيات ، ومن

الكبر والأنفة ، ومن التخاذل والانقسام ، ومن الانقسام إلى وساوس الأجانب الأضداد ، وإلا فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم ، وتتخاطفهم النسور المحلقة فى سمائهم ، والله الموفق ، وإليه ترجع الأمور » .

* * *

ويجب على المسلمين لكى ينهضوا ويتقدموا أن يعمموا فى بلادهم وأوطانهم اللغة العربية ، وإذا لم يستطيعوا أن يجعلوا هذه العربية هى اللغة الوحيدة لهم ، أو الأولى عندهم ، أو « اللغة الأم » كما يعبر بعضهم ، فلا أقل من جعلهم لها لغة مشتركة ، لكى تقرب بينهم وتجمعهم وتؤلف قلوبهم ، ولكى تكون وسيلة تخاطب وتفاهم يسهل بها تبادل المعلومات والعواطف والمشاعر بلا جهد أو تعب .

وإنما قلنا يجب عليهم تعميم اللغة العربية بينهم ، ولم نذكر لغة سواها ، لأن اللغة العربية لغة مقدسة عند هؤلاء المسلمين ، فهى لغة القرآن والحديث والعرب تاريخ الإسلام ، ودينهم يأمرهم بأن يتعلموا هذه اللغة ، ولقد قلت فى غير هذا المكان : إن الإسلام يوجب على أبنائه أن يتعلموا العربية ما استطاعوا ، لأنها لغة قرآنهم ، ولغة نبيهم ، ولغة أسلافهم وأجدادهم الذين نشروا الإسلام ، ولأنها لغة أهل الجنة كما أخبرنا الرسول . . .

. . . ولا يستطيع المسلم أن يدرك بلاغة القرآن وطلاوته وإعجازه إلا إذا فقه العربية ، واللغة من أقوى عوامل الوحدة بين أبناء الإسلام ،

فلا بد للمسلمين من لغة مشتركة ، تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم ، لأن الله تبارك وتعالى أراد المؤمنين أمة واحدة ، وجعلهم إخوة ، ودعاهم إلى التعارف والتآلف ، ولا يتيسر هذا إلا بلغة واحدة ، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة غير اللغة العربية التى نزل بها أعظم كتاب على أكرم رسول ...

.. ... وما أعظم حكمة الإسلام حين ضمن لأسماع المسلمين أن تصغى — أينما كانت — لخطبة الجمعة التى تلقى باللغة الفصحى فى كل أسبوع ، وأن تسمع كلمات الأذان الإسلامى باللغة الفصحى تتردد فى الأسماع كل يوم خمس مرات داعية إلى الصلاة ، ثم تتردد كلمات هذا الأذان خمس مرات أخرى كل يوم فى الإقامة عند الشروع فى الصـــلاة ، ثم يسمع المصلون صوت الإمام فى الصلاة الجهرية ثلاث مرات كل يوم وهو يردد فاتحة الكتاب وجانباً من آياته باللغة الفصحى ، وآلاف الشفاه تستجيب لربها ، وتردد كل يوم على انفراد أو على اجتماع آيات القرآن العربى البليغ ، ويأمرنا الحق تبارك وتعالى بالانتباه والإصغاء لكتابه إذا ترددت على الآذان كلماته : « وإذا قُرِئَ القُرآنُ فاستمِعوا له وأنْصِتوا لعلَّكُمْ تُرحَمونَ » .

أليس هذا كله حملا من الله عز وجل لنا نحن المسلمين على ارتباطنا الدائم باللغة الفصحى لغة القرآن ، حتى تكون جامعة لنا على منهج واحد فى الحياة والتفكير والتعبير ؟! . . .

وكذلك قلت من مقالة لى فى مجلة لواء الإسلام : كأن هناك فئة من الناس تكيد للإسلام والعروبة معاً ، فتبذل جهودها لنشر العامية وضياع الفصحى ، حتى تنمحى معالم القومية الصحيحة ، وحتى تنقطع صلة المسلمين

بقرآنهم العربى المبين ، وإن طوفان العامية اليوم غامر كاسر ، يطاردنا فى الأحاديث العادية ، وفى الإذاعة المتغلغلة ، وفى ساحات الدروس بالمدارس والمعاهد ، وأما الفصحى فقد صارت — وهى لغة القرآن ، وقوام العروبة ، وعز العرب — أضيع من الأيتام ، وأصبحت لا تجد لها الجنود والأنصار ، وأمام هذا يجب علينا أن نشجع كل سبب يؤدى إلى نصرة الفصحى وإذاعتها .

* * *

ومما يجدر بالملاحظة أن الكواكبى لم تفته الإشارة إلى أهمية اللغة العربية وتعميمها بين المسلمين ، وإن تكن تلك الإشارة جاءت عابرة ، ولكنها كافية فى الرمز إلى وجوب اشتراك المسلمين فى اللغة ، فهو حينما تخيل اجتماعات « جمعية أم القرى » جعل أعضاءها كلهم « يحسنون العربية » مع أن فيهم أفراداً من تركيا وفارس والهند والصين وغيرها ، وكرر هذه الإشارة حينما اشترط فى الأعضاء العاملين فى الجمعية « القدرة على التكلم والكتابة بالعربية » وإن كانت العضوية فى الوقت نفسه مباحة لمن تحققت فيه صفة « الإسلامية من أى مذهب كان من مذاهب القبلة » .

ما أحوج المسلمين وهم يتأهبون للنهوض والتقدم أن « يترهب » منهم جماعات فى خدمة اللغة العربية بينهم ، ونشرها فى أرجائهم ، وجمع ألسنتهم وأقلامهم عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا !! . . .

الفصل العاشر

رسالة المسجد

من أهم الوسائل لتقدم المسلمين أداء المسجد الإسلامى لواجبه ، ونستطيع أن نتعرف إلى جلال هذا الواجب إذا عرفنا مكانة المسجد فى الإسلام ورسالته بين المسلمين .

فالمسجد هو المركز الأول للإشعاع الروحى والعلمى والاجتماعى فى الإسلام ، لأنه مكان العبادة والتعلم ، ومجال التذكير والتفقيه والتوجيه ، وهو موطن لحسن الجمع بين أمور الدنيا وشئون الدين ؛ ونستطيع أن نقول إن المجتمع الإسلامى ينهض على نقطة ارتكاز أساسية هى المسجد ، ولعل القرآن الكريم أراد أن يلفتنا إلى هذا المعنى حينما ذكر أن أول بيت أقيم للناس باسم الله وباسم الدين هو المسجد الأول والقبلة الجامعة لملايين المسلمين ، المتمثلة فى الكعبة وحولها المسجد الحرام ، فيقول : « إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضع للنــاسِ للَّذى ببكَّةَ مُباركا وهُدًى للعالَمين ، فيه آياتٌ بيِّناتٌ مَقامُ إبراهيمَ ومَنْ دخله كان آمناً » . وصار هذا المسجد الأول قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وحينما انبثق نور الإسلام فى أيامه الأولى كان هذا المسجد الأول

مثابة للمسلمين ، إليه اتجهت أبصارهم ، ومن حوله تحلقت جموعهم ، وعلى فكرته الموحدة الماجدة تلاقت أفكارهم .

ثم نرى أن أول عمل قام به الرسول عليه الصلاة والسلام — عقب الهجرة مع صحابته رضوان الله عليهم — هو بناء المسجد فى المدينة ، وصار هذا المسجد كمركز الدائرة ، صدرت عنه ورجعت إليه موجات الفئة المسلمة التى أخذت تتكاثر مع الأيام ، ويجمعها ذلك البنساء الواحد وهو المسجد ...

ولقد فتح المسلمون — باسم الله ، وباسم الشريعة الغراء المحرِّرة من العبودية والذل ، وباسم العدالة الإلهية التى يريدها الله لعباده — كثيراً من البلدان والأمصار ، ونرى عقب الفتح أن المسلمين يبدأون بتشييد مسجد يكون واسطة العقود المتوالية من صفوف الدولة الجديدة حساً ومعنى ؛ وعندنا شاهد تاريخى فى وادينا ما زال قائمـاً ؛ فحينما تفتحت أبواب مصر لنور الإسلام القادم إليها من منزل الوحى فى الجزيرة بدأ البطل الفاتح عمرو بن العاص بإنشاء جامع عمرو ، ثم صار هذا الجامع بداية امتداد من مختلف الجهات للمجتمع الإسلامى الناشىء ، ونستطيع أن نقول قريباً من هذا عن الجامع الأزهر فى قاهرة المعز ، وعن مسجد قرطبة فى الأندلس ، وعن جامع القيروان فى شمال أفريقية ، وعن المسجد الأموى فى دمشق ، وغير ذلك . ولقد روى التاريخ أن عمر بن الخطاب كان يأمر الولاة ببناء المسجد فى كل بلد يفتحونه عقب فتحه ؛ كتب عمر بهذا إلى أبى موسى الأشعرى فى البصرة ، وإلى سعد بن أبى وقاص فى الكوفة ، وإلى عمرو بن العاص فى مصر ، وكتب إلى أمراء أجناد الشام أن يتخذوا فى كل مدينة مسجداً .

واتسعت رسالة المسجد فى الإسلام أو تعددت ، فهو أولا معبد تؤدَّى فيه الصلوات ، ويعتكف داخله القانتون والذاكرون والمرتلون لتنزيل ربهم المجيد ، وهو أيضاً مدرسة مفتَّحة الأبواب ، لا يُرَدُّ عنها راغب فى علم ، أو طالب لثقافة .

وفى هذه المدرسة الإسلامية يتلاقى أبناء الأمة ليفقهوا تعاليم شريعتهم ويسمَعوا سِيَرَ أجدادهم وبلادهم ، ويتدارسوا ما ينبغى لمجتمعهم وجموعهم ... والمسجد أيضاً مبعث وجدان عام ، ومثار عاطفة مشتركة ، فمن فوق منبره ، وفى رحاب ساحته ، يتيسر لهداة الأمة أن يعبئوا مشاعرها ، ويوقظوا أرواحها ، ويوجهوا موكبها نحو ما ينبغى أن يتجه إليه ؛ ولو طالعنا صفحات تاريخنا الإسلامى المشرق لوجدنا أن الأعمال الكبرى التى تمت فيه قد بدأت الدعوة إليها فى أغلب الأحوال من المسجد ، ففيه كانت تُعد النفوس ، وتوضع الخطط ، وترسم المناهج ، ويعيَّن الولاة وأمراء الجيوش ، كما كان المسجد يُتَّخذ مجالا للتعليم والتقويم الاجتماعى ، وقاعة للمطالعة ـ ولذلك يلحق بكل مسجد مكتبة ـ ومكاناً للتمريض والتطبيب ، ونادياً للبحث والمشاورة ، وساحة للتدريب العسكرى وتعليم الجندية ، وداراً للقضاء والفصل فى الخصومات ، وموضعاً لتنفيذ الأحكام ، ومظهراً لفن المعمار الإسلامى ، ومنبراً للخطابة والشعر ، ولا ننسى ما أنشده فى المسجد حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما .

وكان المسجد موطناً لتحقيق الوحدة والجماعة ، ومن هنا صارت كلمة « الجامع » كالمرادفة لكلمة « المسجد » ؛ ولقد كان عمر بن الخطاب يأمر الولاة بأن لا يبنوا فى المدينة إلا مسجداً واحداً ، وألا تتخذ القبائل

مساجد أخرى إلا لحاجة داعية ؛ ولذلك لا يجوز بناء مسجد بجوار مسجد ، ويجب هدم المسجد الثانى إذا أقيم للضرار أو المفاخرة ، أو لغير ضرورة .

والمسجد يغرس عادة النظام فى الفرد والجماعة ، فالأذان يتردد فى مواقيت محدودة مضبوطة ، والجماعة تقام فى أول الوقت ، والناس يسارعون إليها لوقتها حتى لا تضيع فضيلتها ولا يُحرموا مثوبتها ؛ وهم يقفون فى الصلاة صفوفاً متراصة منتظمة متوالية ، والإمام يقول للناس عند مفتتح كل صلاة : «استقيموا يرحمكم الله ، سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقام الصلاة » !! .

وإنه لمن الخير كل الخير أن يسهم المسجد فى وثباتنا الاجتماعية والعلمية والروحية بنصيبه الوافر الذى يُحسن فيه الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، مسترشداً فى ذلك بالأثر الإسلامى الحكيم الذى يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

* * *

ونحن نرى من مصلحة بلادنا وأمتنا أن نعتز بقوميتنا ، وأن نحرص على وطنيتنا ؛ وهذا مسلك حميد إذا طالبتنا به حريتنا وكرامتنا ، واستلزمته حياتنا ومصلحتنا ، فإن عقيدتنا تباركه وتؤيده ، لأنها تعلمنا أن حب الوطن من الإيمان ، وأن الغيرة على الحمى والحرمات والأوطان ، وعلى مواريث الأجداد ، من شأن المؤمنين الأوفياء ... ...

والمسجد الإسلامى دعامة قوية للقومية العربية ، لأن علماء القوميات يذكرون أن اللغة هى الأساس الأول للقومية ، أو من الأسس الأولى لها ، ومعنى هذا أن عماد قوميتنا فى لغتنا الماجدة ؛ والمسجد هو عماد هذه اللغة الفصحى ، فقد تموت هذه اللغة فى أماكن كثيرة ، ولكنها تظل حية فى المسجد الإسلامى ، لأن الصلوات المتكررة كل يوم تؤديها الألوف باللغة الفصحى : لغة القرآن أعلى بيان . . . وجموع المصلين يرددون آيات هذا البيان المعجز يومياً ، ويسمعونها من أئمتهم ، ثم تأتى خطبة الجمعة كل أسبوع ، وهى تلقى على الجموع بلغة عربية فصيحة ناصعة ، فتصغى إليها الآذان فى صمت وخشوع ، فتظل موصولة الأسباب بهذه اللغة فى مفرداتها وتعبيراتها ومدلولاتها ؛ والدروس التى تلقى يومياً فى مختلف المساجد تعتمد على القرآن ، وهو بيان عربى معجز : وعلى الحديث ، وهو بيان عربى بليغ ؛ وعلى قصص التاريخ وآثار السلف وشواهد المنثور والمنظوم ، وكلها بلغة عربية مشرقة الأسلوب . . .

وأكبر العلم أن أمرين حفظا على لغة العرب حياتها وجدتها ، وشبابها ونضارتها ، وهما : القرآن والمسجد : ولسنا ندرى ماذا يكون مصيرها لولاهما . . . ولذلك نغتبط باتجاه المسئولين إلى تعمير المساجد بجموع الذين تتهيأ لهم أسباب حفظ القرآن الكريم ، ونرجو أن تكون هذه العناية بتحفيظ القرآن فى المساجد ردءاً وعوناً جديداً لمدارس التحفيظ وجمعياته ومكاتبه ، حتى تتضاعف العناية بهذا الكتاب الإلهى المجيد ، وتتوثق صلته بالمسجد ، فتزداد العربية قوة ، والدين تمكناً .

ثم إننا ندعو فى بلادنا إلى مجتمع ديمقراطى تعاونى اشتراكى ، ونرجو

أن يعم هذا المجتمع السعيد بلاد الإسلام كلها ، ودعائم هذا المجتمع الثلاث يطبقها رواد المسجد عملياً ، فالصلاة أوضح مظهر للديمقراطية والمساواة ، إذ لا فرق فيها بين كبير وصغير ، وفيها تصف الصفوف ، وتتلاصق الأقدام ، وتخضع الجموع لقيادة واحدة مهتدية بهدى الله العلى الكبير ، وهذا تعاون واضح ومشاركة عامة ؛ ومن داخل المسجد تنبعث أصوات الحث على التعاون والتكافل والتراحم وأداء الزكاة والتقريب بين الطبقات ، وفى هذا توجيه إلى الاشتراكية العادلة . . .

وما أجدر المسلمين فى نهضتهم بأن يجعلوا من المسجد دار عبادة وريادة ، ومعهد تعليم وتقويم ، حتى ندخل إليه طالبين زاداً للروح ، ومدداً للقلب ، وطهارة للنفس ، ونخرج منه إلى الحياة وفى حسنا يقظة ، وفى صدورنا بصيرة ، وفى عقولنا فكرة .

وما دام الأمر كذلك فالواجب على المسلمين أن يعنوا عناية كبرى بأمر المسجد ، مبنى ومعنى ، مظهراً ومخبراً ، حتى يحقق هذه الرسالة الجليلة ؛ ولقد تخيلتُ مسجداً أتمناه وأتمنى أن أراه فى كل ناحية من بلاد المسلمين ، حتى يكون مركزاً أساسياً للتربية الدينية والاجتماعية والثقافية والبدنية ، فكانت الصورة التى تخيلتها لهذا المسجد على الوضع التالى :

يجب أن يكون ذلك المسجد قريباً من أعمال الناس ومساكنهم ، وأن نوزع المساجد توزيعاً حكيما عادلا . فلا نرى حياً واحداً يمتلىء بمجموعة مساجد ، حتى لا يجد أكثرها من يعمرها ، ثم نرى أحياء تخلو من المساجد ، حتى لا يجد أهلوها مكاناً للصلاة وإقامة الشعائر الدينية ! .

ويجب أن نحسن بناء هذه المساجد بحيث يشملها الضوء ، وتتخللها

أشعة الشمس ، فلا تكون مظلمة رطبة تنفّر الناس منها ، أو تدخل على نفوسهم بالضيق والكآبة ، وأن يتخللها الهواء ، وتتوافر فيها وسائل التهوية الحديثة ، على أن تكون نوافذ المسجد كاملة الزجاج ، حتى يمكن منع البرد والهواء الشديد والتراب المتطاير من دخول المسجد ، وبخاصة أيام الشتاء العنيفة .

ويجب أن يكون بناء المسجد أنيقاً مكيناً ، وليس معنى هذا أن نزخرف المسجد ، أو نبالغ له فى التزيين ، فالمساجد بيوت الله التى تزدان بالعبادة والتقوى ، لا بالتجميل والتلوين ، وكلما كانت المساجد أبعد عن الوشى والتحسين كانت أقرب إلى إخلاص العبادة والقنوت .

ولكن هذا لا يتعارض مع مطالبتنا بأن يكون المسجد فى غاية النظافة والنظام والترتيب ، وتوافر الراحة والهدوء ، وأن نطهر المسجد من حين إلى آخر بالمطهرات القوية المبيدة للحشرات والجراثيم ، وأن نجمع بين هذه المطهرات وبين إطلاق الرائحة الطيبة كالعطور أو البخور فى المسجد ، خلال الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وغير ذلك من المناسبات التى يحتشد فيها المصلون .

ولو أن لى من الأمر شيئاً لمنعت الملوّثين فى ثيابهم أو أطرافهم أن يدخلوا المسجد حتى يتطهروا ، وليس هذا بمناقض للمساواة فى الإسلام ، فأول شرط فى المساواة ألا يكون المرء سبباً فى إيذاء سواه أو إضرار غيره .

ولو أن لى من الأمر شيئاً لرفضت أن يدخل المصلون المساجد بأحذيتهم ، لأن هذه الأحذية — مع الأسف — تحمل الكثير

الأوساخ والفضلات ، وهذه تتناثر فى ساحة المسجد ، وقد تعلق بأقدام المصلين أو أطرافهم أو جباههم ، وقد تسبب لهم الأمراض أو التقزز على أقل تقدير .

ومن الخير أن نخصص أماكن كافية — وبلا أى أجر — خارج المسجد لوضع الأحذية والنعال فيها ؛ وقد شاهدت هذا النظام الصحى الجميل فى بعض مساجد تركيا ، كما شاهدته فى مسجد أنيق نظيف فى مدينة بورسعيد ، وقد يكون من الأسلوب العملى المتدرج أن نبدأ بتنفيذ هذا فى الأحياء الصالحة له .

وتجب العناية القصوى بدورة المياه فى المسجد ، إذ يلزم أن تكون صحية نظيفة كافية وافية بالأغراض المطلوبة منها ، فيلزم أن تكون المراحيض كافية فى عددها ، دائمة التنظيف والتطهير . والملاحظ أن هناك مساجد تباعد بين روادها وبين الاندماج فى العبادة أو الشعور بالروحانية ، وذلك بسبب القذارة الموجودة فى دورات مياهها ومراحيضها بوجه خاص ، أو بسبب الروائح التى تنبعث منها ؛ والذين يرتادون المساجد يعرفون من تفاصيل هذا ما يغنى عن التطويل . . .

ويحسن أن يكون فى دورة المياه بالمسجد طائفة من الحمامات والمغاسل ، فبعض المصلين لا يتيسر لهم الاغتسال أو الاستحمام فى بيوتهم أو أماكن عملهم ، وقد يسعون إلى صلاة الجمعة مثلا والوسخ طبقات فوق جلودهم ، ورائحة العرق العنيفة تفوح من أبدانهم ، فلو تيسر أمامهم الحمام لاستحموا فى وقت قصير ، ودخلوا بين المسلمين على نظافة وطهر ...

* * *

ويجب أن يكون فى المسجد مكتبة إسلامية اجتماعية ، ندقق كثيراً فى اختيار كتبها ، بحيث تكون ملائمة لرواد المسجد ، محققة للأغراض الإسلامية والأخلاقية والاجتماعية التى تراد منها .

ويحسن أن تكون بجوار المسجد حديقة صغيرة تلطّف جوه ، وتجمّل منظره ، وتجذب الناس إليه ، كما يحسن أن نلحق بالمسجد ساحة للعب الفتيان ، ليأخذوا حظهم من اللعب البرىء فيما بين الصلوات ، ثم يختموا ألعابهم عند الأذان ، ويتعودوا دخول المسجد منذ صباهم لأداء الصلوات فى الجماعات ، ولقد قلت فى مؤتمر رياضى عقد سنة ١٩٥٤ : « ولو كان الأمر إلىّ لجعلت فى كل ملعب مسجدا ، ولجعلت على مقربة من كل مسجد ملعبا ، بل لو قدرنا لجعلنا المسجد ملعبا ، والملعب مسجداً ، فنزكى الرياضة ونعليها ، ونعمم العبادة ونقويها ، دون أن نفرط فى حق من حقوق الله أو حقوق بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . ويسبح له فيها بالغدو والآصال .

ومن الواجب أن نعلم الرياضى كيف ينظر إلى ساحة الملعب كأنها ساحة المسجد ، لأننا فى المسجد نزكى الروح ونصفيها بجلواتها ونجوياتها ، ونحن فى الملعب نصلح مسكن هذه الروح وهو البدن ، فالبدن إذن لازم للروح مرتبط بها ، وما لزم شيئاً تبعه فى الأهمية والتقدير » .

وقد يكون من تمام الإحسان هنا أن نلحق بالمسجد « مستوصفاً » صغيراً لعلاج العوارض المرضية الخفيفة ، فنجمع بين علاج الروح وعلاج البدن .

* * *

ويجب تخصيص مكان للنساء فى المسجد ، إذ لا نستطيع أن نقول إن المرأة قد عرفت طريقها السليم إلى المسجد حتى الآن ؛ وفى عصور الإسلام المزهرة كانت المرأة المسلمة تعرف هذا الطريق فى حشمة وصيانة .

ومن اللازم أن يكون هذا المكان منفصلا عن أمكنة الرجال فى المسجد ، فلا يكون هناك اختلاط ولا خائنات أعين ، وفى الوقت نفسه يكون المكان موصولا ببقية المسجد من جهة السماع والمتابعة فى الصلاة والخطبة والدروس ، ويكون لذلك المكان بابه الخاص ودورة مياهه الخاصة ومكتبته الخاصة .

ويلزم تبعاً لهذا إشاعة استعمال مكبرات الصوت فى المساجد ؛ ومع تذكر الفوائد الكثيرة التى نجنيها من هذه المكبرات يلزم الاحتراس فى استعمالها حتى لا يساء هذا الاستعمال ، وحتى لا نسبب بها أضراراً أخرى لا داعى إليها .

* * *

ويجب تنظيم الدروس الدينية والاجتماعية فى المسجد ، مع شدة العناية بها ، بحيث تكون وثيقة الصلة بحياة الأفراد ومشكلات مجتمعهم ، فلا يكون الدرس فى واد والناس فى أودية أخرى ، بل يجب أن يحيى مدرس المسجد بدروسه عواطف الناس الدينية ، وأن يبحث معهم علاج شئونهم الدنيوية ، وأن يكون خبيراً بهذه الشئون ، عليماً بطرق بحثها فى ضوء القرآن وفى ظلال تعاليم الإسلام .

وهذا التوجيه الديني والاجتماعي والثقافي يحتاج إلى إمام خطيب مدرس اجتماعي بصير، يحسن فهم دينه، ويحسن عرضَ تعاليمه، ويحسن بلوغَ مواطن التأثير في نفوس سامعيه. ويحسن أن يقوم شخص واحد بوظيفة الإمامة والخطابة والتدريس، بحيث يكون ذلك الإمام متفرغاً لعمله منقطعاً لمسجده، لا يشغل نفسه بأي عمل آخر، ولا ينقطع عن إمامة الناس في الصلوات اليومية، ولا ينقطع عن تنظيم الدروس للرجال، والدروس للنساء، والدروس المشتركة بينهما، كما ينظم الدروس الخاصة بالفتيان والفتيات، حتى ينشأ الجميع على حب المسجد وأداء العبادة، وبذلك يكون هذا الإمام دائم الاتصال بقومه، منتظم التأثير فيهم، موصول التوجيه لمن حوله من أبناء الإسلام...

وهذا الانقطاع للوظيفة الذي نطالب به في إمام المسجد — لأنه سيكون خطيبه ومدرسه وشيخه ومديره والمشرف على شئونه كلها — يستلزم أن نبالغ في إتقان إعداد هذا الإمام علمياً ودينياً وخلقياً واجتماعياً، وأن نكون كرماء جداً في إرضائه من الناحية المادية، بحيث تتوافر الحياة الكريمة الراقية له ولأفراد أسرته، حتى لا تتطلع عينه إلى ما في يد غيره، أو إلى عمل آخر يستكمل به مطالب حياته.

وبعد هذا التوافر يجب علينا أن نكون أشداء حازمين جداً في حمله على واجبه، ومحاسبته بعزيمة وصرامة إذا قصر فيه؛ وعلى هذا الخطيب البليغ الخبير الراضي البصير بشئون من حوله وأساليب علاج مشكلاتهم يتوقف أداء الرسالة الكبرى التي ننتظرها من المسجد الإسلامي، وبخاصة إذا حققنا لذلك الإمام ما يجب له من حصانة وبعد عن أهواء الحاكمين

وتحكم القادرين وتوجيه المستغلين ، حتى يستطيع أن يجهر بكلمة الدين صريحة خالصة ، لاتحريف فيها ولاتبديل ولا كتمان .. ومن ألزم اللوازم أن تكون للمسجد حصانة فوق حصانة دور الشورى والتشريع المعروفة فى مختلف الأمصار والبلدان .

أحب أن يكون المسجد معبداً ومدرسة إسلامية شعبية ، ومركزاً للتوجيه الاجتماعى والثقافى ، وقبلة يحيط بها الملعب الإسلامى ، والحديقة الإسلامية ، والمستوصف الإسلامى ، والمكتبة الإسلامية ، ودار المصالحات الإسلامية ، وساحة الاحتفالات الدينية والمناسبات ذات الصلة بالإسلام ، كمناسبة عقد القران وحفل الزواج ، وما إلى ذلك من مواسم لها صبغتها الإسلامية .

وبعبارة أخرى أريد أن يكون المسجد جامعة إسلامية شعبية مصغرة .

إن الناس فى المشرق والمغرب قد أنشأوا الجامعات ، وجعلوا هذه الجامعات مجموعة كليات ومعاهد ، وكل منها له هدفه وغرضه ، وكلمة « الجامعة » هى كلمة « الجامع » الذى هو المسجد الكبير ، وإنما زادوا على الكلمة هذه التاء الدالة على التأنيث ، وبقى للجامع تذكيره ! .. وفى كلمة « الجامع » معنى الجمع ... فليجمع المسجد إذن طوائف المسلمين ... ليجمعهم على ربهم متعبدين ... وليجمعهم على الدين متفقهين ... وليجمعهم على الثقافة

الاجتماعية متعلمين ... وليجمعهم على الحفل الإسلامى الطهور متآخين ....
وليجمعهم على كلمة الله — رجالا ونساء — متعاونين ... وليجمعهم على
خطبة الجمعة الحية القوية المتحررة المتصلة بشئون الناس وأحداثهم فى
الحياة حتى يكونوا عليها مقبلين وبها منتفعين .

لو أحسن المسلمون الانتفاع بالمسجد ورسالته لخطوا خطوات واسعة
فسيحة فى مجال الرفعة والتقدم ! ..

الفصل الحادى عشر

طائفة من المقترحات

أذكر فيما يلى طائفة من المقترحات التى أعتقد أنها تساعد على تقدم المسلمين ورفعة شأنهم :

أولا : تجب العناية بتعميم الرياضة البدنية ، أو التربية الرياضية ، فى جميع مدارس البلاد الإسلامية ومعاهدها ، مع الحرص على جعل هذه الرياضة وسيلة لا غاية ، فهى وسيلة لإيجاد الجسم السليم الذى يحتله العقل السليم ويقوده الخلق القويم ، وهى وسيلة لتربية الأخلاق وغرس الصفات الحميدة التى تتكون من التمرين والتدريب .

وإذا كانت (الرياضة البدنية) تعد عند الرياضيين درجة أولية ، لأنها تهذيب فردى للبدن عن طريق التمارين المختلفة ، وكانت الألعاب الرياضية عندهم درجة ثانية بعد الأولى لأن الألعاب الرياضية مباريات بين مجموعات تتذرع كل منها بالتنظيم والتعاون إلى نيل السبق والغلب ، فإننا نريد الدرجة الثالثة العليا ، وهى (التربية الرياضية) التى تكوّن فى المرء جسما وفهماً وعقلا ؛ لأننا نريد الرياضى بجسمه المحكم ، وتفكيره المنظم ، وخلقه المقوّم ، وإيمانه المدعّم ؛ كما نريد جيلا فتيّاً فى بدنه وكيانه ، عميقاً فى تفكيره وجنانه ، غيوراً على بلاده وأوطانه ، متطهراً فى خلقه ووجدانه ، ثابتاً فى يقينه وإيمانه ، ومن هـــذا الجيل المنشود يتكون الوطن المؤمن العظيم الذى نريد . . .

ولذلك كان واجباً أن نعمم الرياضة السليمة القويمة فى كل مكان ، لاباسم البدن والوطن فقط ، بل باسم الدين أولا وقبل كل شيء .

ويجب أيضاً إشاعة روح الفتوة والفروسية بين شباب المسلمين ، ونشر التداريب العسكرية ونظم الجندية ، ومحاربة الترف والتميع والترهل وأخذ الناشئة بأساليب التقشف والاخشيشان .

ثانياً : العناية بحسن الربط بين الدين والفن ، لأن الإسلام قد جاء لتنظيم الدين والدنيا ، والفن ذو صلة وثيقة بجانب الدنيا ، كما أنه ذو صلة بجانب الدين ، فأما صلته بالدنيا فتتمثل فى أن الفن يعمل لتجميل هذه الحياة ، وإظهار مفاتنها ومحاسنها ومباهجها ، حتى يسعد بها أهلوها ، وحتى يقبل عليها أبناؤها إقبال الراغبين فيها المحبين لها ، بعد أن عرفوا ما غاب عنهم قبل ذلك من وجوه الحسن والجمال فيها .

وأما صلة الفن بالدين فنعرفها ونفهمها إذا تذكرنا جيداً أن الطبيعة — وهى منبع الفن الأصيل — هى كتاب الله المنظور ، كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء أو المسموع ، وصاحب الفن حين يأخذ أصول فنه ومواده من كتاب الله المنظور ، يكون قد ربط بين فنه وبين حمى ربه ، ولذلك نعتقد أن الفنان الأصيل الصحيح يكون قوى الإيمان ، وثيق الاعتقاد ، عميق الاتصال بالله ، وتتجلى آثار إيمانه ويقينه واتصاله بخالقه فى أعماله الفنية المختلفة .

ولقد دعوت منذ سنوات — ومازلت أدعو — إلى تأكيد الصلة الطاهرة المستقيمة بين الدين والفن ، لا لنخدم الدين فقط ، ولا لنخدم الفن فقط ، بل لنخدمهما معاً ، فنخدم الدين حين نستخدم وسائل الفن وطرائقه

فى نشر التعاليم الدينية والدعوات الروحيـــة والمبادىء الأخلاقية والاتجاهات السامية ، ونخدم الفن بأن نرتفع به إلى المستوى السامق الذى يتعالى عن الأخلاط والأوشاب ، وعن الانحراف وسوء الاستغلال ، والذى يجعل الفن ـ حقاً وصدقا ـ تعبيراً سليما قوياً عن الحياة الكريمة ، وتصويراً مضبوطاً لمحاسن الطبيعة الصافية ، ثم نظلل هذا الفن المطهر بظلال الدين الهادى ، فيكون ذلك تكريماً للفن أى تكريم .

ولقد قلت منذ عهد بعيد : إذا تدين رجل الفن وتفنن رجل الدين التقيا فى منتصف الطريق ، لخدمة العقيـــدة الصحيحة ورفعة الفن الأصيل .

ثالثاً : العناية بتكوين الدعاة إلى الإسلام بين المسلمين وبين غيرهم من الناس ، بحيث يدرس هؤلاء الدعاة علوم الدين دراسة بصيرة واعية ، ويدرسون ما يلزم من علوم الدنيا ، وما يحتاج إليه الداعية الناجح ، كالأدب والخطابة ، والاجتماع ، والقانون ، والسياسة ، والتاريخ ، والتيارات المذهبية والملية ، والمذاهب الاقتصادية ، وفن معاملة الناس .

رابعاً : التعريف المستمر بالعالم الإسلامى ، لأن كثيراً من المسلمين لا يعرفون عن إخوانهم فى بقاع العالم شيئاً ذا بال ، وقد يعين على ذلك التعريف إصدار حولية تسمى « حولية العالم الإسلامى » ، تبسط فيها قضايا الشعوب الإسلامية ، وآلامها وآمالها ، وحاضر أمرها ، ومرتقب غدها ، والمعلومات التى يجب أن يعرفها كل مسلم عن وطنه الأكبر .

خامساً : تحريض أبناء المسلمين على الرحلة والانتقال ، ففى كثير منهم

مايشبه الوثنية الأرضية أو عبادة الأرض ، بمعنى التزامها وعدم الرحيل عنها ، مع أن المسلمين الأولين كانوا يجوبون الآفاق ، فقد رحلوا وساحوا وانتشروا ، والكثير منهم خلفوا ثمرات كبيرة من رحلاتهم ، كما فعل ياقوت وابن بطوطة وابن خلدون والقالى وغيرهم ، والإسلام يحث الحث القوى على الضرب فى الأرض ، والسير فى الفجاج ، ودراسة ما فى الدنيا من مشاهد وكائنات ..

سادساً : استخصاب كل ما يمكن استخصابه من الأراضى والأودية لمضاعفة الإنتاج الزراعى فى بلاد المسلمين ، مع العناية بأمر التصنيع كلما أمكن ذلك وأفاد ، لنقضى على بقية الخرافة المفتراة ، وهى أن العالم الإسلامى خلق ليكون مزرعة ، بينما خلق الغرب ليكون مصنعاً يستخدم محصولات هذه المزرعة ، ويوم يحسن العالم الإسلامى الجمع بين المزرعة والمصنع سيسعد كثيراً ويرقى كثيراً .

سابعاً : يجب استغلال كل ما فى بلاد الإسلام من طاقات وخامات وثروات معدنية وطبيعية ، لأن الأقطار الإسلامية فيها كنوز كثيرة وخيرات وفيرة : فى باطن الأرض ، وفى جوف الربوات والجبال ، وفى مياه الأمطار ، وفى قوى الأنهار والبحار ؛ فعلى المسلمين أن يحسنوا كشف هذه الكنوز ، ويجيدوا استغلالها والانتفاع بها واستثمارها فى داخل البلاد ، ويصدروا الفائض منها إلى محتاجيه ، بحيث لا يستورد قطر إسلامى شيئاً يحتاج إليه من الخارج ، إلا إذا انعدم ذلك الشىء بتاتاً داخل البلاد الإسلامية .

ثامناً : تحرير مصادر الثروة من التحكم الأجنبي ، كالنفط مثلا ... إنه في بلاد المسلمين فيجب أن يكون للمسلمين ، وأن يسيطر عليه أهلوه من المسلمين ، وأن يستقلوا باستغلاله والانتفاع به ونفع الغير منه بعد ذلك .

تاسعاً : العمل الجدى لإنقاذ المسلمين الذى لا يزالون محرومين من الحقوق الإنسانية الأساسية كالحرية والاستقلال والحصول على ضرورات الحياة .

عاشراً : تعميم نظام الجمعيات التعاونية فى البلاد الإسلامية ، لتحقيق نظام التكافل والتعاون ، وللقضاء على الاستغلال والاحتكار وفحش الربا ، مع العناية البالغة بتأمين النواحى الاقتصادية فى المجتمع الإسلامى .

المراجـع

أم القرى ـ لعبد الرحمن الكواكبى . حلب سنة ١٩٥٩
طبائع الاستبداد ـ لعبد الرحمن الكواكبى . حلب سنة ١٩٥٧
الاسلام على مفترق الطرق ـ لفايس ، وترجمة الدكتور عمر فروخ .
السياسة الشرعية ـ لابن تيمية .
خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ـ لاحمـد الشرباصى .
القاهرة سنة ١٩٥٩
حاضر العالم الاسلامى ـ تأليف لوثروب ستودارد ، وترجمة عجـاج
نويهض ، وتعليق الامير شكيب أرسلان
تفسير الطبرى ـ للامام ابن جرير الطبرى
معجم مقاييس اللغة ـ لابن فارس : طبع عيسى الحلبى . القاهرة
لماذا تأخر المسلمون ـ للامير شكيب أرسلان . القاهرة
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ السيدأبوالحسنالندوى.القاهرة
الميزان ـ للامام الفقيه عبد الوهاب الشعرانى
تفسير البيضاوى
كتب الحديث

الدوريات

جريدة الاهرام ـ مجلة « الحج » السعودية ـ مجلة الدكتور ـ مجلة
رسالة الاسلام ـ مجلة لواء الاسلام ـ مجلة منبر الاسلام ـ منبرالشرق

الفهرس

طبع بمطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ـ القاهرة
تليفون ٤٤٧٠٦



مؤسسة المطبوعات الحديثة
شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة
الجمهورية العربية المتحدة